من بـــــلاغة النبي ﷺ

في

الحـــــــث على لزوم الجـــــــماعة

إعداد الدكتور

ياسر عبد الحميد حسين عرقوب

أستاذ البلاغة والنقد المساعد

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بدسوق

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وأفصح الناطقين، وأبلغ المتكلمين، سيدنا محمد –ﷺ –وعلى آله وأصحابه أجمعين.

وبعد.....

فلا يخفى على أحد حال أمتنا اليوم، وما تعانيه من ذُلٍّ وضعف وهوان جعل أضعف الأمم– فضلاً عن أقواها– تستهزئ بها، وتجترئ عليها دون وازع أو رادع، كما لا يخفى على أحد أن السبب الرئيس في هذا الضعف والانكسار هو تفرق هذه الأمة أشتاتاً وعدم اجتماعها على كلمة سواء، فالمسلمون الأوائل لما كانت كلمتهم مجتمعة، ورايتهم واحدة، دانت لهم جميع الأمم، وسادوا الأرض شرقاً وغرباً، ولابد لكل عاقل غيور على أمته أن يبحث عن مخرج لما نحن فيه، ويكمن الحل في الالتزام بأوامر الله– تعالى– وأوامر نبيّه – صلى الله عليه وسلم– وعلى رأس هذه الأوامر الأمر بلزوم الجماعة، ولأهمية هذا الأمر كرره النبي– ﷺ – وشدّد على الالتزام به، وحثّ عليه في أحاديث كثيرة، وسياقات مختلفة ، تأكيداً للحث على لزوم الجماعة لما له من دور في تقوية الأمة وريادتها. لذا رأيت أن أدرس هذا الموضوع تحت عنوان: **(من بلاغة النبي– صلى الله عليه وسلم – في الحثّ على لزوم الجماعة).**

وقد اتبعت في هذه الدراسة المنهج التحليلي، فكنت أعرض الحديث تحت مقام معين ، ثم أبين الغرض العام، ثم أستعرض السياق لإبراز مدى التوافق بين السياق والمقام، وصولاً إلى كيفية تحقيق الهدف عن طريق استعمال الألوان البلاغية المختلفة.

وقد جاء هذا البحث في مقدمة ، وتمهيد، ومبحثين، وخاتمة.

أما المقدمة: فتحدثت فيها عن أهمية الموضوع، ومنهج السير في دراسته

التمهيد: وفيه بيان المراد بالجماعة عند العلماء.

المبحث الأول: بلاغة النبي –ﷺ– في الحث على لزوم الجماعة في سياق الترغيب.

المبحث الثاني: بلاغة النبي –ﷺ– في الحث على لزوم الجماعة في سياق الترهيب.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج التي أسفرت عنها الدراسة.

وتجدر الإشارة إلى أنني لم أجد فيما قرأت شيئا يتصل بهذا البحث إلا بحثاً بعنوان: (الأحاديث الواردة في لزوم الجماعة– دراسة حديثية فقهية)[١] للدكتور/ حافظ بن محمد الحكمي.

وهي دراسة قائمة على جمع الأحاديث الواردة في لزوم الجماعة، وبيان حالها من الصحّة والضّعف ثم بيان ما اشتملت عليه من بعض الأحكام الفقهية، أما دراستي هذه فهي دراسة بلاغية قائمة على استخراج الأسرار البلاغية الكامنة في النص، وتجليتها، وإبراز دورها في إثراء المعنى من خلال التحليل الدقيق للسمات الفنية والأسلوبية التي يحملها كلام النبي – صلى الله عليه وسلم – في هذه الأحاديث.

والله من وراء القصد، وهو حسبي ونعم الوكيل.

الباحث: د/ ياسر عبد الحميد عرقوب

الأستاذ المساعد في جامعة الأزهر.

(١) بحث منشور بالمملكة العربية السعودية–دار الصّميعي للنشر والتوزيع بالرياض– ١٤٢٨هـ.

تمهيد

المقصود بالجماعة

تعدّدت أقوال العلماء حول المراد بالجماعة في أحاديث النبي- صلى الله عليه وسلم – أوجزها فيما يلي:-

يرى الطبري – رحمه الله – أن الجماعة هم القوم المجتمعون على أمير، ينضمون تحت لوائه فيقول:(اختُلف في هذا الأمر- فقال قوم :الجماعة: السّواد الأعظم....،وقال قوم: المراد بالجماعة : الصحابة دون من بعدهم.

وقال قوم: المراد بهم : أهل العلم ، لأن الله جعلهم حجة على الخلق، والناس تبع لهم في أمر الدين....

والصواب أن المراد من الخبر لزوم الجماعة الذين في طاعة من اجتمعوا على تأميره، فمن نكث بيعته خرج عن الجماعة) [(١)].

وذكر الترمذي أن المقصود بالجماعة: (هم أهل الفقه والعلم والحديث)[(٢)].

وروى اللالكائي عن عمرو بن ميمون أن عبد الله بن مسعود ﷺ قال له: يا عمرو بن ميمون.....(إنما الجماعة ما وافق طاعة الله وان كنت وحدك) [(٣)].

وفصّل الشاطبي- رحمه الله- الأقوال في المراد بالجماعة فقال: (اختلف الناس في معنى الجماعة المرادة في هذه الاحاديث على خمسة

---

(١) ينظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ٣٧/١٣، تحقيق: عبد العزيز بن باز ومحب الدين الخطيب، ط: دار الفكر. وتحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي للمباركفوري ٣٢١/٦ ، ط: دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) الجامع الصحيح سنن الترمذي لمحمد بن عيسى الترمذي ٤٦٦/٤، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون ، ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة لهبة الله بن الحسن اللالكائي ١٠٩/١، تحقيق: د/أحمد سعد حمدان، ط: دار طيبة، الرياض، ١٤٠٢هـ.

أقوال:

أحدها، أنها السواد الأعظم من أهل الإسلام، وذكر أنه قال بهذا أبو مسعود الأنصاري وابن مسعود ، فعلى هذا القول يدخل في الجماعة مجتهدو الأمة وعلماؤها ، وأهل الشريعة العاملون بها، ومن سواهم داخلون في حكمهم، لأنهم تابعون لهم ومقتدون بهم، فكل من خرج عن جماعتهم فهم الذين شذوا وهم نهبة الشيطان.

الثاني: أنها جماعة أئمة العلماء المجتهدين، فمن خرج مما عليه علماء الأمة مات ميتةً جاهلية، لأن جماعة الله العلماء ، جعلهم الله حجة على العالمين، وممن قال بذلك عبد الله بن المبارك، وإسحاق بن راهويه، وجماعة من السلف وهو رأي الأصوليين.

فعلى هذا القول لا مدخل هنا لمن ليس بعالم مجتهد، لأنه داخل في أهل التقليد.

الثالث: أن الجماعة هي الصحابة على الخصوص، فإنهم الذين أقاموا عماد الدين وأرسوا أوتاده، وهم الذين لا يجتمعون على ضلالة أصلا، وقد يمكن في من سواهم ذلك.

وعلى هذا القول فلفظ الجماعة مطابق للرواية الأخرى في قوله –عليه الصلاة والسلام– :(ما أنا عليه وأصحابي) فكأنه راجع إلى ما قالوه وما سنوه وما اجتهدوا فيه حجه على الإطلاق، وبشهادة رسول الله –ﷺ– لهم بذلك خصوصا في قوله:(فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين)، وأشباهه، أو لأنهم المتقلّدون لكلام النبوة، المهتدون للشريعة، الذين فهموا أمر دين الله بالتلقي من نبيّه مشافهة، على علم وبصيرة بمواطن التشريع، وقرائن الأحوال بخلاف غيرهم.

الرابع: أن الجماعة هي جماعة أهل الإسلام، إذا أجمعوا على أمر فواجب على غيرهم من أهل الملل اتّباعهم، وهم الذين ضمن الله – تعالى– لنبيّه – عليه الصلاة والسلام – أن لا يجمعهم على ضلالة.

وكأن هذا القول يرجع إلى الثاني وهو يقتضي أيضا ما يقتضيه، أو يرجع إلى القول الأول وهو الأظهر، وفيه من المعنى ما في الأول من أنه لابد من كون المجتهدين فيهم.

الخامس: ما اختاره الطبري الإمام من أن الجماعة : جماعة المسلمين إذا اجتمعوا على أمير، فأمر– عليه الصلاة والسلام – بلزومه، ونهى عن فراق الأمة فيما اجتمعوا عليه من تقديمه عليهم.

وحاصله: أن الجماعة راجعة إلى الاجتماع على الإمام الموافق للكتاب والسنة، وذلك ظاهر في أن الاجتماع على غير سنة خارج عن معنى الجماعة المذكور في الأحاديث المذكورة، كالخوارج ومن جرى مجراهم.

فهذه خمسة أقوال دائرة على اعتبار أهل السنة والاتباع، وأنهم المرادون بالأحاديث، فلنأخذ ذلك أصلا)[1].

والحقيقة أن ما ذكره الشاطبي –رحمه الله– يكاد يجمع معظم ما قيل حول هذه المسألة، فلم يزد أحد على ما ذكره شيئا، فقد استعرض أقوال العلماء، وحاول التوفيق بينها، وذكر أن هذه الأقوال تدور كلها حول اعتبار أهل السنة والاتباع هم الجماعة المقصودون في أحاديث النبي –ﷺ– وهذا هو الراجح، ويؤكده تفسير ابن كثير لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ آل عمران: ١٠٦، قال: (يعني يوم القيامة حين تبيضّ وجوه أهل السنة والجماعة، وتسودّ وجوه أهل البدعة والفرقة)[2]. والله أعلم.

---

(١) الاعتصام لإبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي ٢/٧٧٠-٧٧٦ تحقيق: سليم بن عيد الهلالي، ط: دار ابن عفان، السعودية، الثانية، سنة: ١٤١٢هـ ، ١٩٩٢م باختصار.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ٢/٩٢، تحقيق: سامي محمد سلامة، ط: دار طيبة للنشر والتوزيع، الثانية، سنة: ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م.

المبحث الأول
الحثُّ على لزوم الجماعة في سياق الترغيب

الحديث الأول: لزوم الجماعة نجاة من الفتن .

عن حذيفة بن اليمان–رضي الله عنه– قال: "كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ، فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الخَيْرِ، فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: «نَعَمْ» قُلْتُ: وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ: «نَعَمْ، وَفِيهِ دَخَنٌ» قُلْتُ: وَمَا دَخَنُهُ؟ قَالَ: «قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي، تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ» قُلْتُ: فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: «نَعَمْ، دُعَاةٌ إِلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، صِفْهُمْ لَنَا؟ فَقَالَ: «هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا، وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا» قُلْتُ: فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟ قَالَ: تَلْزَمُ جَمَاعَةَ المُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ، قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلاَ إِمَامٌ؟ قَالَ «فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الفِرَقَ كُلَّهَا، وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ، حَتَّى يُدْرِكَكَ المَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ»(١).

والحديث كما هو واضح من سياقه – بيان للفتن التي ستحدث بعد زمن النبي – صلى الله عليه وسلم – وأن الناس سينتقلون عبر الأزمنة

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الفتن، باب: كيف الأمر إذا لم تكن جماعة، حديث رقم (٦٦٧٣)، ٢٥٩٥/٦، تحقيق د/مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، ط٣، ١٤٠٧ه، ١٩٨٧م٠ ومسلم في صحيحه، كتاب: الإمارة، باب: وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن،١٤٧٥/٣، حديث رقم (١٨٤٧)، تحقيق، محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
والدخن: الحقد، وقيل: فساد القلب (فتح الباري لابن حجر العسقلاني ٣٢/١٢).

من حسنٍ إلى سوء، ومن سيء إلى أسوأ، وفي نهاية الحديث يرشدنا النبي –ﷺ– إلى طريق الخلاص المتمثل في لزوم جماعة المسلمين وإمامهم، وقد جاء ذلك من خلال حوار دار بين سيدنا حذيفة بن اليمان –رضي الله عنه– وبين سيدنا رسول الله –ﷺ–.

والحوار هنا قائم على الاستفهام، فسياق الحديث يحمل الكثير من الأسئلة وأجوبتها، والأسئلة هنا على حقيقتها، لأن حذيفة– رضي الله عنه– يستفهم على الحقيقة عن أمور يجهلها، ويتخوّف منها.

والهدف من الحديث الحث على لزوم الجماعة، والتمسك بها، لكن سياق الحديث يجعل هذا الهدف في نهايته، ولم يصل إليه إلا بعد الكثير من الأسئلة تمكيناً للهدف في النفوس، وتثبيتاً له.

وابتداء الحديث بهذه المقابلة الرائعة بين سؤال الناس عن الخير، وسؤال سيدنا حذيفة عن الشر؛ تأكيد لحرص الصحابة على تحصيل الخير، وبعدهم عن الشر، وخوفهم منه.

وتتجلى براعة الاستهلال من خلال ابتداء الحديث بالخبر: "كان الناس يسالون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر".

ولا يخفى ما فيه من لفت النظر إلى أن المسئول عنه في هذا الحديث مما يغفل عنه كثير من الناس، فينبغي التنبه له والحرص عليه.

وتعليل سيدنا حذيفة لسؤاله عن الشر بقوله: "مخافة أن يدركني" يبرز شدة خوفه– رضي الله عنه– من الشر والاقتراب منه.

والاستفهام الأول من الاستفهامات: قلت: يا رسول الله:" إنّا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير ، فهل بعد هذا الخير من شر؟" قال: "نعم"، وسبق الاستفهام بالنداء: "يا رسول الله"، واستعمال أداة نداء البعيد "يا" إشارة إلى رفعة شأن المنادى –ﷺ–، واستعمال صيغة المجيء دون

الإتيان الذي هو بمرادفها "فجاءنا" لأن؛ (المجيء أعم من الإتيان)[١]، وفي هذا تناسب مع الحديث عن الإسلام المقصود بقوله: "بهذا الخير" دلالة على تعدد أنواع الخير التي يحملها الإسلام لأتباعه، فكان التعبير بالمجيء أوفق للمقام.

والتعريف بالإشارة، وإيثار لفظ الخير على الإسلام في قوله: "بهذا الخير " إعلاء لشأن الإسلام ، وأن كل تعاليمه خير.

وتأتي الإجابة النبوية في غاية الإيجاز حيث قوله –ﷺ–: "نعم"، والتقدير: نعم، بعد هذا الخير شر، ففيه إيجاز بحذف الجملة، وهو سمة من سمات البيان النبوي في مثل هذه المقامات التي يكون المحذوف فيها معلوما للدلالة عليه، كما ألمح فيه إعراضا من النبي –ﷺ– عن أن يذكره، لأنه مما لا تسعد به نفس الملتقي.

ويتكرر السؤال من سيدنا حذيفة مما يبرز تشوفه إلى المستقبل وما سيحدث فيه قائلا:("وهل بعد هذا الشر من خير؟" قال:" نعم ، وفيه دخن") أي: كدورة إلى سواد[٢]، وهو خير لا يكون خالصا، وإنما تختلط به بعض الشرور والأحقاد، وتكرر فيه الإيجاز بحذف الجملة كسابقه، وتحمل إجابة النبي– صلى الله عليه وسلم – على هذا السؤال تخويفا شديدا دفع سيدنا حذيفة– رضي الله عنه– أن يسأل عن نوعية هذا الدخن قائلا:("وما دخنه؟") ، فيجيبه النبي– صلى الله عليه وسلم–

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، تحقيق : محمد خليل عيتاني (جاء)، ط: دار المعرفة – بيروت، لبنان، الأولى، سنة: ١٤١٨هـ ،١٩٩٨م.

(٢) ينظر: شرح السنة للإمام البغوي، ١١/١٥، تحقيق، زهير الشاويش، وشعيب الأرناؤوط، ط: المكتب الإسلامي، بيروت، الثانية، سنة: ١٤٠٣هـ ، ١٩٨٣م.

قائلا:("قوم يهدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر")، وحذف المسند هنا والتقدير:(يأتي قوم.....) إسراعا لبيان هذا الدخن حيث نفس سيدنا حذيفة تتشوق إليه.

والحقيقة أن الهدي بغير هدي النبي-ﷺ- لا يسمّى هديا، وإنما سمّاه النبي –صلى الله عليه وسلم – بذلك من باب المشاكلة، أو أنه إلماح إلى كمال خبثهم، حيث يتمثلون للناس في صورة هداة إلى الحق والصواب لكن حقيقتهم تخالف ذلك.

والتعبير بالمضارع "يهدون" مما يدل على تجدد هذا الفعل منهم تجددا يشي بالاستمرار، فهم يفعلون ذلك لا يملُّون، ولا ييأسون، ولا يألون جهدا في سبيل إغواء المسلمين، والميل بهم عن الطريق المستقيم.

وتنكير "قوم" فضلا عما يدل عليه من تحقير، فإن فيه دلالة على العموم والشمول، أي أنهم كثيرون متواجدون في كل طوائف المجتمع، ولذلك جاءت الجملة بعده "تعرف منهم وتنكر" مما يدل على كثرتهم في هذا الزمن، وأن ما يأتون به واضح الفساد والشر، كما أن التعبير بـــ"قوم" يدل على اجتماعهم على الشر، وتوحّد قصدهم في إغواء المسلمين وإفسادهم، ومع ذلك فهذا الزمان خير مما بعده، ولذلك يطلق عليه سيدنا حذيفة – رضي الله عنه – مسمى الخير في السؤال التالي "فهل بعد هذا الخير من شر؟"، وإطلاق لفظ الخير عليه دلالة واضحة على أنه لا يكون زمان إلا والذي بعده شرّ منه، ولذلك تأتي إجابة النبي –صلى الله عليه وسلم –"نعم، دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها " .

وتبدو البلاغة العالية هنا في الإيجاز بحذف المسند، والتقدير "نعم" يوجد أو يكون دعاة، وذلك للإسراع إلى بيان نوعية الشر؛ حيث نفس سيدنا حذيفة – رضي الله عنه – متلهفة إلى معرفته.

والمقصود بقوله "دعاة" أنهم (يدعون الناس إلى العمل بما يولج فيها)[١] أو أن ذلك (باعتبار ما سيؤول إليه حالهم في الآخرة)[٢] مما يشير إلى أنهم سيحشرون على ما كانوا عليه في الدنيا تخويفا لهم.

وتنكير "دعاة" للتحقير، وجمعها للدلالة على كثرتهم في هذا الزمن، وفي هذا زيادة تحذير منهم، كما أن فيه إشارة إلى تعدّد حيلهم وطرقهم في إغواء الناس وإهلاكهم، مما دفع سيدنا حذيفة –ﷺ– أن يعرف عنهم أكثر، ويميِّزهم ليحذرهم، فيسأل: قلت:" يا رسول الله، صفهم لنا": قال: "هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا"

والتعبير بالمضارع "يتكلمون" إشارة إلى تجدد هذا الفعل منهم، مما يدل على قوة شرهم وإصرارهم على الدعوة إلى الشرور والمفاسد، واستعمال الألسنة مجاز عن اللغة إذ المعنى: ويتكلمون بلغتنا، وهذا مجاز مرسل علاقته الآلية؛ إشارة إلى قوة كلامهم، وشدة تأثيرهم، ولذلك يشتد بسيدنا حذيفة الخوف فيتلمس طريق النجاة سائلا المصطفى – صلى الله عليه وسلم – : فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ مستعملا صيغة أمر: "فما تأمرني" ، دون: تنصحني مثلا ؛ ليبرز شدة حرصه على الالتزام بما سيأمره به النبي– صلى الله عليه وسلم– وبيان أن هذا أمر واجب التنفيذ، مما يظهر شدة حرصه على النجاة من هذه الشرور،

(١) هدى الساري مقدمة فتح الباري لابن حجر العسقلاني ١١٧/١، ط: دار المعرفة– بيروت.
(٢) عمدة القاري شرح صحيح البخاري للعيني،١٩٤/٢٤، ط: دار الفكر.

وخوفه منها، ولذلك يرشده النبي – صلى الله عليه وسلم– قائلا: (تلزم جماعة المسلمين وإمامهم)، وهذا هو موطن الشاهد في الحديث ، ولعل أبرز ما يلفت النظر هنا هو مجيء الأمر في ثوب الخبر، إذ معناه: الزم جماعة المسلمين وإمامهم، وفي هذا تأكيد للأمر وحثّ على امتثاله، يقول الزمخشري: (إخراج الأمر في صورة الخبر تأكيد للأمر، وإشعار بأنه مما يجب أن يتلقّى بالمسارعة إلى امتثاله) [1]، ولذلك كان الأمر على هذه الصورة في الحديث أدلّ على الطلب من صيغة الأمر المباشر " الزم ".

فـــالأمر إنما " يخرج في صورة الخبر للمبالغة في إيجاب إيجاد المأمور به فيجعل كأنه يوجد، فهو يخبر عنه "[2].

والتعبير بصيغة اللزوم " تلزم " يشعر بضرورة التمسك بالجماعة في هذا الزمان الذي يعم فيه الفساد والتفرّق، وإضافة الجماعة إلى المسلمين تشريف وتعظيم لها، فضلا عما فيه من زيادة حث على لزومها، وأن هذه الإضافة تشعر بالعلة التي من أجلها يأمر النبي–ﷺ– بلزومها.

وعطف الإمام على جماعة المسلمين من عطف الخاص على العام اهتماما بشأن الإمام، إذ بصلاحه يصلح كل شيء، وبفساده يفسد كل شيء، كما أن فيه أيضا إشارة إلى أن جماعة المسلمين لابد أن يكون لهم إمام يجمعهم ، ويوحّد كلمتهم.

---

(١) الكشاف للزمخشري ١/٤٤٠، تحقيق: عادل عبد الموجود وعلي عوض، ط: مكتبة العبيكان، الرياض، سنة: ١٤٨٠،١هـ، ١٩٩٨م.

(٢) السابق: ٣/٢٩٢.

ولشدة حرص سيدنا حذيفة –رضي الله عنه– على النجاة لا يكتفي بهذا الطريق الذي بيّنه له النبي –ﷺ–، وإنما دفعته شدة خوفه من الشر، والحذر منه أن يستفهم من النبي– صلى الله عليه وسلم– عن طريق آخر للنجاة ، إذا لم يُتح الطريق الأول بأن لم يكن للمسلمين جماعة ولا إمام ؟ فيجيبه النبي –ﷺ–: " فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعضّ أصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك"، والمعنى: تحمّل الشدائد والصعاب مهما بلغ بك الأمر ولا تتبع هؤلاء الدعاة، والأمر " اعتزل " يحمل معنى التنبيه والتحذير لحذيفة –رضي الله عنه– ، وتعريف الفِرق بالإشارة "تلك" للتحقير والتقليل من شأنها، وعضّ أصل الشجرة كناية عن المعاناة والشدة التي يعيشها من يبحث عن النجاة في هذا الزمن وما سيلاقيه من عنت ومشقة، يقول الطيبي – رحمه الله– : "عض الجذل كناية عن مكابدة الشدائد وذلك من قولهم: فلان يعض بالحجارة لشدة الألم، ويحتمل أن يكون المراد منه: أن ينقطع عن الناس ويتبوأ أجمة، ويلزم أصل شجرة إلى أن يموت أو ينقلب الأمر وذلك من قولهم: عض الرجل بصاحبه إذا لزمه ولصق به". وإيثار لفظ العضّ متناسب أشد التناسب مع المقام، إذ الزمن تموج فيه الفتن والأحقاد فيكون عضّ الشجرة حتى لا يتكلم المرء بأي كلمة إيثاراً للسلامة، فللكلمة خطورتها في مثل هذه الأزمنة.

وبالتأمل في الحديث يدرك الملتقى أنه اشتمل على أمرين:–

الأول: الأمر بلزوم جماعة المسلمين وإمامهم، وقد جاء هذا الأمر في صورة الخبر – كما ذكرت – "تلزم جماعة المسلمين وإمامهم".

الثاني: الأمر بالاعتزال عند عدم وجود الجماعة، وقد جاء هذا الأمر بصيغة الأمر المباشر الصريح "اعتزل"، فاختلفت صورة الأمر في الموضعين، وهذا من شأنه أن يحدو الملتقى إلى إمعان النظر،

ويثير في نفسه سؤالا مفاده: لماذا اختلفت صورة الأمر في الموضعين؟ ويبدو لي –والله أعلم– أنه لما كان الأمر الأول يتضمن الحث على لزوم الجماعة وإمامهم، وهذا شيء كثيراً ما أمر به المولى– سبحانه– في القرآن الكريم، والنبي –ﷺ– في أحاديثه، نظراً لما له من أهمية في قوة المسلمين، وكسر شوكة أعدائهم، اقتضت الحاجة التأكيد عليه أكثر، فجاء الأمر به في صورة الخبر لما يشتمل عليه من زيادة حث وتأكيد ، بخلاف الأمر بالاعتزال، وهذا قلّما يؤمر به لقلة دواعيه، فلم تكن هناك حاجة إلى تأكيده مثل الأمر الأول، وبهذا لاءمت كل صورة مقامها أيما ملاءمة مما يبرز دقة البيان النبوي.

وبالرجوع إلى موطن الشاهد في الحديث "تلزم جماعة المسلمين وإمامهم "يلحظ أن النبي–ﷺ– لم يبدأ بها الحديث، وإنما وصل إليها بعد مقدمات من التهويل والتخويف ، وعرض المشاهد المخيفة حتى إذا بيّن طريق النجاة بعد ذلك حرص المتلقي عليه، وامتثل له، وكأن ما سبق من استفهامات كانت تهيئة لقبول هذا الأمر وتأكيده.

وبمعاودة التأمل في الحديث من أوله يدرك الملتقي أنه قد تآزرت معظم الألوان التعبيرية على مستوى المفردات والجمل لبيان طريق النجاة من الفتن التي تتعاقب على هذه الأمة، وكان لأسلوب الاستفهام النصيب الأوفر من بين هذه الألوان ، حيث كان الركيزة الأساسية التي اتّكأ عليها الحديث لبيان طريق النجاة من خلال هذه الاستفهامات المتكررة من سيدنا حذيفة وهي –كما ذكرت – على حقيقتها ،وكانت هذه الاستفهامات مرتبة ترتيبا دقيقا للوصول إلى الهدف(طريق النجاة)، المتمثل في لزوم الجماعة وعدم مفارقتها، ولاشك أن أسلوب الاستفهام يعطى الكلام حرارة حيث يحدث في الأسلوب(ما يشبه التيار الكهربي،

تزيده الكلمات والحروف وتكرار الاستفهام أحيانا توهجا وتأجّجا، حتى يصل إلى مدى يناسب الموقف وحال المخاطب والنسق الخاص والسياق العام)[١]، كما أن تكرار الاستفهام في الحديث يعكس مدى خوف سيدنا حذيفة ،وقلقه من الشر، وحرصه على النجاة منه ، وبهذا كان لأسلوب الاستفهام الهيمنة على معظم أجزاء الحديث، وتآزر معه في إبراز المعنى بعض الألوان الأخرى كالإيجاز بالحذف، والكناية وإيراد الأمر في صورة الخبر وغيرها، وكانت غاية في البلاغة والروعة والانسجام مما جعل الحديث –على طوله– كأنه كلمة واحدة.

* * *

(١) الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم، د/صبَّاح دراز، صـــ١٢٦، مطبعة الأمانة، مصر، ط١، ١٤٠٦هـــ ،١٩٨٦م.

الحديث الثاني: لزوم الجماعة – طهارة من الغلّ.

عن عبدالله بن مسعود– ﷺ– عن النبي– ﷺ– قال: «نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا وَحَفِظَهَا وَبَلَّغَهَا، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، ثَلاَثٌ لاَ يغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ: إِخْلاَصُ العَمَلِ لِلَّهِ، وَمُنَاصَحَةُ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَلُزُومُ جَمَاعَتِهِمْ، فَإِنَّ الدَّعْوَةَ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ»[1].

والغرض من الحديث بيان فضل الإخلاص، ومناصحة أئمة المسلمين، ولزوم جماعتهم ، وأنها تنقّي قلب المسلم من الحقد والغل. ولما كان لهذه الأشياء أهميتها البالغة في حياة المسلمين قدّم لها النبي–ﷺ– بهذه التهيئة البليغة التي لم تقتصر على جملة واحدة، وإنما جملتين بينهما أشد الارتباط ،فيبدأ الحديث بالدعاء "نضّر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها وحفظها وبلّغها"، ومعنى: نضّر الله امرأ؛ أي: حسّنه ونعّمه، وقيل: " أوصله نضرة النعيم"[2]، وهذا دعاء من النبي –ﷺ– بالنضارة والبهجة والحسن لمن سمع حديثه فوعاه وحفظه وبلغه، وقد جاء الدعاء على هذه الصورة "نضّر الله " بدلا من أن يقال: اللهم نضّر ، فجاء الدعاء في صورة الخبر للإشعار بتحقق الدعاء، وكأنه قد استجيب، يقول الزمخشري –رحمه الله –" قولهم: رحمك الله أخرج في صورة الخبر ثقة في الاستجابة، كأنما وجدت الرحمة فهو يخبر عنها"[3] وفى هذا حث بالغ على تعلّم السنة وحفظها وتبليغها، كما أنها أيضا

(١) سنن الترمذي، ٣٤/٥، باب الحث على تبليغ السماع، ح(٢٦٥٨)، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، ط: دار إحياء التراث العربي– بيروت.

(٢) مشارق الأنوار على صحاح الآثار للقاضي عياض:٢٨/٢، ط: المكتبة العتيقة ودار التراث.

(٣) الكشاف للزمخشري: ٤٤٠/١.

بشارة عظيمة للمشتغلين بالسنة ، قال المناوي – رحمه الله – :(لا يزال في وجوه المحدّثين نضارة ببركة دعاء النبي – صلى الله عليه وسلم –) (١).

وافتتاح الحديث بهذا الدعاء تهيئة رائعة تحث على الالتزام بما بعدها من الأوامر ، قال ابن القيم : (لو لم يكن في فضل العلم إلا هذا وحده لكفاه شرفا، فإن النبي –ﷺ– دعا لمن سمع كلامه ووعاه وحفظه وبلّغه)(٢).

ومما يبالغ في الدعاء تضعيف الفعل" نضَّر" وإسناده إلى لفظ الجلالة "الله" وهذا مما يزيد الحث على تعلم السنة وحفظها وتعليمها، ولذلك أباح النبي –ﷺ– لمن يصعب عليه من الصحابة حفظ كلامه أن يكتبه، فقد روى الترمذي –رحمه الله – عن أبي هريرة –رضي الله عنه– أنه قال:" كان رجل من الأنصار يجلس إلى النبي –ﷺ –، فيسمع من النبي –ﷺ– فيعجبه ولا يحفظه، فشكا ذلك إلى النبي –ﷺ– فقال: يا رسول الله، إني أسمع منك حديثا فيعجبني ولا أحفظه، فقال رسول الله –ﷺ–: "استعن بيمينك"، وأومأ بيده للخط"(٣).

---

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير لعبد الرؤوف المناوي، ٢٨٣/٦،ح(٩٢٦٣)، ط: المكتبة التجارية الكبرى، مصر، الأولى، سنة: ١٣٥٦هـ.

(٢) مفتاح دار السعادة لابن القيم، ٧١/١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م، ١٤١٩هـ.

(٣) تحفة الأحوذي ٣٧٥/٣.

وهناك أخبار تدل على أن النبي ﷺ منع كتابة كلامه، وهذا المنع لم يكن قاطعاً، فعندما وجدت علة النهي منعت الكتابة، وعندما زالت، أبيحت الكتابة، وانتهى أمر الرسول ﷺ إلى إباحتها التي ذكرتها كتب الحديث (ينظر في هذه المسألة: فتح الباري لابن حجر العسقلاني ٢٠٤/١، والبلاغة في السنة النبوية للدكتورة عزة جدوع ص(١٥ – ١٧)، ط: مكتبة المتنبي– القاهرة، الثالثة، سنة: ١٤٣٩هـ، ٢٠١٨م.

وفى قوله: "امرأ "مجاز مرسل علاقته الكلية، حيث عبر بالمرء وأراد الوجه ، فهو الذى يظهر عليه النضارة كما في قوله تعالى : : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾﴾ القيامة :٢٢، وتكمن بلاغة المجاز هنا في إيحائه بأن النضارة تعمّ سائر بدن من يسمع كلام النبي –ﷺ– ويعيه ويحفظه ويبلّغه دون الاقتصار على الوجه فقط، ساعده تنكير" امرأ"، وهذا مما يزيد الحث ويبالغ فيه.

ولم يقتصر البيان النبوي في الحث على تبليغ السنة على الجملة الافتتاحية "نضّر الله الخ "وإنما أتبعها بجملة أخرى تزيد الحث "وهى قوله : –ﷺ– : "فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه "، وهذه الجملة تعليل لما قبلها ، حيث تبين الفائدة من تبليغ السنة وهى استنباط ما فيها من الفقه ، فرب مبلَّغ يكون أفقه من مبلِّغ، فيستنبط شيئا لم يدركه المبلِّغ ، ولأهمية التفقّه جاءت هذه الجملة تعليلية على هدى النسق القرآني حين جعل التفقّه في الدين علة للنفير حيث قال – سبحانه –: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ التوبة: ١٢٢.

وإطلاق الفقه على الحديث (فرب حامل فقه) من إطلاق الخاص على العام اهتماما بشأن الخاص ، حيث تتضمن السنة النبوية كل العلوم من حديث وتفسير وعقيدة وسلوك وغيرها، ومن أهمها الفقه ، فمن إرادة الله الخير للعبد أن يفقهه في الدين كما قال –ﷺ– (من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين.....الحديث).

ويتبع هذا الحثَّ حثٌ ثالث وهو قوله-ﷺ-: (ثلاث لا يغل[١] عليهن قلب مسلم)، والمعنى-كما يقول ابن الأثير -رحمه الله-: (إن هذه الخلال الثلاث تستصلح بها القلوب ، فمن تمسّك بها طهر من الخيانة والدّغل والشر)[٢]، ويؤخذ منه بمفهوم المخالفة أن من لم يلتزم بهذه الخصال الثلاث امتلأ قلبه غلا وحقداً وحسدا، مما يساعد على ضرورة الامتثال لهذه الأوامر، ويساعد أيضا في الحث عليها، وحذف المضاف إليه إيجازاً في قوله: "ثلاث" والتقدير: ثلاث خصال؛ لأنه معلوم، وتكرر الإيجاز بالحذف أكثر من مرة في الحديث للعلم به، فكما حذف المضاف إليه حذف المسند إليه في قوله: "إخلاص العمل لله"، والتقدير: أولها: إخلاص العمل، أو هي إخلاص العمل، وكذلك في مناصحة أئمة المسلمين، وفي لزوم الجماعة، وهذا إيجاز بديع، ونفي للفضول من القول؛ لأن كل هذه المحذوفات معلومة للمخاطب، وهذه سمة من سمات البيان النبوي.

وقُيِّد الإخلاص بالعمل مع أن الإخلاص مطلوب في القول والعمل؛ لأهمية العمل وأنه هو الذي يظهر فيه الإخلاص، وعليه مدار القبول، فالإخلاص في القول لا يجدي إن لم يصدقه العمل، وتقديم الإخلاص على غيره من الخصال لأهميته، إذ هو رأس كل شيء وعموده، وعلى قدره يكون الأجر والثواب.

---

(١) يُغَل: بضم الياء، من الإغلال، وهو: الخيانة في كل شيء، ويُروى بفتح الياء: من الغِل، وهو الحقد والشحناء؛ أي: لا يدخله حقد يزيله عن الحق. ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لأبي السعادات المبارك بن محمد الجزري(٣/٧١٧)، تحقيق ،طاهرأحمد الزاوي، محمود أحمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، ١٣١٩ه،١٩٧٩م.

(٢) السابق: ٣/٠٧١٧

وفي المرتبة الثانية يأتي قوله ﷺ :"ومناصحة أئمة المسلمين "، ومعناه: إسداء النصيحة لهم، وتقديم المشورة الخالصة .

وبالتأمل يدرك المتلقي أن البيان النبوي قيد النصح بأئمة المسلمين لأهميته ، إذ بصلاح الإمام تصلح الرعية ، ومع أن النصح هنا مقيد بأئمة المسلمين إلا أن النبي ﷺ عبّر بصيغة المفاعلة "مناصحة" مما يدل على أن النصح يشمل الجميع، فليس النصح مقتصرا على النصح للأئمة، وإنما على الأئمة أيضا أن ينصحوا الرعية، ويدل أيضا على تكرار النصح متى احتيج إليه، فلا يستغني عنه إنسان في شئونه وشئون من يرعاهم، كما أن استخدام صيغة المفاعلة فيها دلالة على أن هذا الأمر ليس سهلا بل يحتاج لمزيد من الجهد في سبيل إقناعهم ، فليس من اليسير التسليم لكل ما يقال، مما يؤكد على أهمية النصيحة ، وأنها يجب أن تبذل لأئمة المسلمين وعامتهم كما بين النبي ﷺ في حديث آخر، وذلك لما لها من دور في تقدم المجتمعات ،ودحض السلبيات الموجودة فيها .

ويختم النبي ﷺ هذه الخصال بقوله :"ولزوم جماعتهم " وهذا هو موضع الشاهد، واختيار صيغة اللزوم دون الاتباع وغيرها مما قد يؤدي المعنى نفسه يشعر بعدم المفارقة ، ساعده التعبير بالمصدر " لزوم " .

ولأهمية لزوم الجماعة ، وزيادة في الحث عليه لم يكتف البيان النبوي بذكره فقط كسابقيه ، وإنما أتبعه ببيان الأثر المترتب على لزومها ، وهو قوله–ﷺ –: " فإن دعوتهم تحيط من ورائهم " ومعناها – كما ذكر ابن الأثير – :أن دعوتهم " تحدق بهم من جميع جوانبهم "[1]،

(١) النهاية في غريب الحديث ٤٦١/١.

وهذا زيادة في الحث على لزوم الجماعة وعدم مفارقتها ، ولا شك أن اقتران الشيء ببيان الآثار المترتبة علي فعله تشجيع للنفوس ، وتحفيز لها على امتثاله ، وزيادة في الإقبال عليه .

وجملة " فإن الدعوة تحيط من ورائهم " تعليلية لما قبلها ، فإن من يلزم جماعة المسلمين يستفيد فائدة عظيمة تتمثل في شمول دعوتهم له ، وحصوله على نصيب من هذه الدعوات ، و قد اشتملت هذه الجملة على استعارة مكنية جسّدت الدعوة سياجا أو جدارا يحمى من خلفه بجامع المنعة والحماية ، وفى هذا حث على لزوم جماعة المسلمين.

يقول ابن القيم – رحمه الله – : "هذا من أحسن الكلام وأوجزه وأفخمه معنى، شبه دعوة المسلمين بالسور والسياج المحيط بهم المانع من دخول عدوهم عليهم ، فتلك الدعوة التي هي دعوة الإسلام وهم داخلوها ، لما كانت سورا وسياجا عليهم، أخبر أن من لزم جماعة المسلمين أحاطت به تلك الدعوة التي هي دعوة الإسلام كما أحاطت بهم ، فالدعوة تجمع شمل الأمة وتلم شعثها، وتحيط بها ، فمن دخل في جماعة المسلمين أحاطت به و شملته"[١]، وأكدت هذه الجملة بإنّ لتأكيد هذه الاستفادة، وأنها كائنة لا محالة لمن يلزم جماعة المسلمين .

والتعبير بالإحاطة (تحيط) دون تصل أو تكتب مثلا مما يتقارب معه في المعنى يدل على شمول الإحاطة والحماية ، والإتيان به مضارعا يدل على تجدد الإحاطة كلما تجددت دعوات المسلمين، ساعده التعبير بالوراء " من ورائهم " الدال على شمول الحماية والحفظ، فإذا كانت دعوة المسلمين تشمل من وراءهم فما بالك بمن أمامهم ومن

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم ١/٧٥،٧٦.

بجوارهم، لاشك أن الدعوة ستكون أكثر شمولا له، مما يدل على شمول الإحاطة والحفظ .

وبمعاودة التأمل في الحديث ألحظ أنه قد اشتمل على ستّ جمل كانت الثلاثة الأولى فيها محفزات لما بعدها من الخصال الثلاثة التالية ، ولا شك أن كثرة المحفزات تهيئة للالتزام بالخصال التي ستأتي بعدها تبعث علي امتثالها والمسارعة إليها، كما أن الخصال الثلاثة: " الإخلاص، ومناصحة أئمة المسلمين، ولزوم جماعتهم " جاءت مرتبة ترتيبا دقيقا، حيث تقدم الأمر بالإخلاص لأنه أصل كل شيء، ثم مناصحة أئمة المسلمين لأنه بصلاحهم صلاح الأمة، ورفعة شأنها، وثلثت هذه الخصال بلزوم جماعة المسلمين حتى يعم جميع أفراد الأمة تحت راية واحدة، يجمعها إمام يوحّد كلمتها، وبذلك تظل الأمة الإسلامية منصورة على من عداها، لا يعتريها تفرق أو تشرذم، كما ألمح في تأخير الأمر بلزوم الجماعة هنا أن النبي – ﷺ – أراد أن يخصّه بشيء وهو أن دعوتهم تحيط بمن وراءهم، مما يبالغ في الحث على لزومها وعدم مفارقتها.

ولاشك أن هذه الخصال الثلاثة لها أهمية عظيمة حتى قال شيخ الإسلام – محمد عبد الوهاب –رحمه الله–:"لم يقع خلل دين في الناس ودنياهم إلا بسبب الإخلال بهذه الثلاث أو بعضها"[1].

* * *

(١) مجموعة رسائل في التوحيد والإيمان للشيخ محمد بن عبد الوهاب ٣٣٦/١، تحقيق: إسماعيل محمد الأنصاري، نشر: مطابع الرياض.

الحديث الثالث: لزوم الجماعة طريق إلى الجنة

عن عمر بن الخطاب ﷺ أن النبي ﷺ قال «عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ، وَهُوَ مِنَ الِاثْنَيْنِ أَبْعَدُ، وَمَنْ أَرَادَ بحْبحَةَ الْجَنَّةِ فَعَلَيْهِ بِالْجَمَاعَةِ»(١).

ومقام الحديث ترغيب في لزوم الجماعة، وتحذير من التفرق والتشرذم. وقد جاء سياق الحديث مؤكداً ذلك، فبدأ الحديث بالأمر الصريح" عليكم بالجماعة"، واستعمال اسم فعل الأمر" عليكم" ومعناه: الزموا الجماعة حث بالغ على الالتزام بتنفيذ المأمور به، ولهذا أوثر استعمال الأمر في صورة اسم فعل الأمر " عليكم" لما يدل عليه من أمر موسوم بالعلو، أي أن هذا الأمر وارد إليكم من جهة العلو مما يؤكد ضرورة الالتزام به.

والتعبير" بالباء" في قوله:" بالجماعة" التي تحمل معنى المصاحبة والملازمة تأكيد أيضاً للزوم الجماعة.

وعقب هذا الأمر بالتحذير من مفارقة الجماعة حيث قوله:" وإياكم والفرقة " وهذا تأكيد يتضمن زيادة الحث على الالتزام للأمر، وهنا يترسَّم البيان النبوي خطا البيان القرآني حينما أمر بالاعتصام بحبل الله أعقبه بالنهي عن عدم التفرق في قوله–تعالى–:" واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا". آل عمران آية" ١٠٣"

(١) سنن الترمذي، كتاب: الفتن، باب: ما جاء في لزوم الجماعة، حديث رقم: (٢١٦٥)، وابن أبي عاصم في السنة ٤٢/١، باب: ما ذكر عن النبي ﷺ من أمره بلزوم الجماعة، وإخباره أن يد الله على الجماعة ح(٨٨)، ط: المكتب الإسلامي – بيروت، الأولى، سنة: ١٤٠٠هـ.
وبحبحة الجنة: وسطها وأوسعها.

وجمع بين الترغيب والترهيب هنا هذه المقابلة البديعة" عليكم بالجماعة" "وإياكم والفرقة" لتأكيد لزوم الجماعة، والحث على عدم مفارقتها، ولا شك أنَّ المقابلة – كما يقول الأستاذ الشايب–:"نوع من التحدي بين المعاني، والمنافسة في الظهور، وهذه قوة للمعاني"(١) وهذا تأكيد على ضرورة لزوم الجماعة.

ولم يكتف النبي ﷺ بالمقابلة في تأكيد هذا الأمر، وإنما أتبعه بالجملة التعليلية: "فإن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد" لزيادة التأكيد على لزوم الجماعة، فإثبات الشيء معللاً–كما يذكر العلوي–: "آكد في النفس من إثباته مجرداً عن التعليل"(٢) فهو وسيلة من وسائل تأكيد المعني .

وابتداء التعليل بإنّ تأكيد فوق تأكيد ، أفاد ملازمة الشيطان لمن ينفرد عن الجماعة، ولذلك أوثر التعبير بالمعيّة (فإن الشيطان مع الواحد)، للدلالة علي ملازمة الشيطان له، وعدم انفكاكه عنه، ومجيء إن بعد الأمر والنهي كثير في الأوامر والنواهي المهمة التي تحتاج مجاهدة النفس للصبر علي تنفيذها، والثبات عليها، فهي " تكثر عقب الأوامر والنواهي التي يحتاج تنفيذها إلي كلفة ومشقة، فكان ما فيها من مصادرة النفس، ومغالبة الهوي، والتثاقل في أدائها بحاجة إلي ما في حرف التوكيد من الإلهاب والتهييج(٣) "مما يزيد التأكيد علي لزوم

(١) الأسلوب أ/أحمد الشايب ص١٩٧، ط: مكتبة النهضة المصرية، السابعة، سنة: ١٣٩٦ هـ، ١٩٧٦م.

(٢) الطراز للعلوي: ١٣٨/٣، ١٣٩، ط: دار الكتب العلمية– بيروت.

(٣) من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم (الفاء، وثم) د/محمد الأمين الخضري، ١١٣، ط: مكتبة وهبة.

الجماعة ، ويستحث النفس عليه .

وألمح في هذه الجملة التعليلية إيجازا بديعا دلتّ عليه هذه الجملة إذ التقدير : وهو من الثلاثة أكثر بعدا، ومن الأربعة أكثر، وهكذا مما يصور الشيطان يبتعد ويرتعد خوفاً كلما رأي سواد المسلمين يكثر ويزيد، وهذا مما يستحث النفس علي التزام الجماعة حتى يكثر سوادها فيرهبها الشيطان ، ولعلّ السر في بلاغة الإيجاز بالحذف هنا عدم تحديد الجماعة، وترك المجال مفتوحا، إشعاراً بأنه كلما زاد عدد الجماعة كلما ارتعدت فرائص الشيطان، وكلما اندحر بعيداً . ولهذا كان الحذف هنا – كما يقول الإمام عبد القاهر – : " أبلغ من الذكر ، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة ، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق ، وأتم ما تكون بياناً إذا لم تبن"(١).

وختْم الحديث بالشرط وجزائه : " ومن أراد بحبحة الجنة فعليه بالجماعة " تأكيد آخر علي ما بدأ به الحديث ، وهو الأمر بلزوم الجماعة ، والشرط هنا إغراء وترغيب ينضاف إلي الترغيبات السابقة في لزوم الجماعة ، وذلك بجعل لزومها سببا في أن يكون الممتثل للأمر في أعلي وأطيب مكان في الجنة، و هذه غاية كل مسلم، والتعبير بالإرادة " أراد " مما يشعر بقوة العزم والتصميم علي الفوز بأعلى المراتب في الجنة .

وقد ذكر معظم العلماء أن المقصود ببحبحة الجنة : أوسطها وأوسعها، وأرى أن المقصود أعلي مراتبها، ولا يتعارض ذلك مع ما

(١) دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني: ١٤٦/١، تحقيق: شاكر، ط: مكتبة الخانجي– القاهرة.

ذكره المحدّثون، فلا مانع أن يكون أعلي مراتب الجنة هو أوسعها أيضاً–وهذا هو المعلوم – ولذلك أوثر التعبير بالبحبحة عن العلو . وأري أيضا أن الشرط هنا مقلوب ، حيث جعل الجزاء في موضع الشرط ، و الشرط في موضع الجزاء ، والتقدير : من لزم الجماعة دخل الجنة ، فدخول الجنة هو الجزاء المترتب علي لزوم الجماعة، ولعلها هنا لتأكيد الترغيب، وزيادة الحث علي لزوم الجماعة، إذ جعلها في موضع الجزاء وإن كان موقعها الشرط .

ويختم الحديث بما بُديء به – الحث علي لزوم الجماعة – فبدأ بقوله : "عليكم بالجماعة " وختم بقوله: "فعليه بالجماعة " ، ولا شك أن هذا التكرار في صيغ مختلفة يزيد التأكيد والحث علي التزام المكرر (لزوم الجماعة) ويرسخه في الأذهان، فلا يخفي دور التكرار في تثبيت المعاني لأن الشيء " المكرر ينطبع في تجاويف الملكات اللاشعورية التي تختمر فيها أسباب أفعال الإنسان، فإذا انقضى شطر من الزمن نسي الواحد منا صاحب التكرار، وانتهي بتصديق المكرر، إذ أن الشيء إذا تكرر رسخ في الأذهان رسوخاً تنتهي بقبوله حقيقة ناصعة "[1] ، فكان التكرار هنا متناسبا مع مقام الحديث.

وانتهاء الحديث بالمعني نفسه الذي بدأ به أطلق عليه أحد الباحثين المعاصرين اسم " النوع الدائري المغلق ، وهو من سمات الأسلوب النبوي ، فكان فيه توافق بين المطلع والختام ، إذ انتهي الحديث بالمعني

(١) روح الاجتماع د/جوستاف لوبون ص١٣٩، ترجمة: أحمد فتحي زغلول باشا، نشر: توفيق الرافعي، المطبعة الرحمانية– مصر، الثانية.

نفسه الذي ابتدأ به "[١] ، وفي هذا تأكيد للأمر الأول " عليكم بالجماعة "، هذا فضلاً عن أن التكرار علي هذه الصورة يزيد من تماسك النص بتكرار وحدة من وحدات بنائه، وإعادتها مرة ثانية لتأكيد دلالتها " مما يجعل الحديث كله كأنه لبنة واحدة.

وبمعاودة التأمل في الحديث يدرك الملتقي أن الأمر المكرر في بداية الحديث ونهايته لم يأت علي صورة واحدة، وإنما أسند الأمر في مطلع الحديث إلي ضمير المخاطبين " عليكم "، وفي الختام أسند الأمر[٢] إلي ضمير الغائب "عليه " وفي هذا استيعاب للجميع، من كان حاضرا منهم، ومن لم يحضر مما يوسّع دائرة الأمر، ويدل على أن جميع الأمة مطالب بتنفيذه، ولا يُخص به أحد دون أحد، مما يشعر بشمولية هذا الأمر والتأكيد عليه .

وبعد ، فقد توافرت تراكيب الحديث كلها علي أداء المعني، وكان أسلوب الأمر بلزوم الجماعة هو الأبرز في الحديث حيث شمل مطلع الحديث وختامه، وكان ما بينهما تحفيزات عليه، وتضامن مع الأمر في إبراز المعني المقابلة، والتعليل، والتأكيد، والشرط المقلوب، وغيرها، هذا فضلا عن المفردات كالتعبير بالإرادة، والبحبحة، والدقة في استعمال الحروف: " الباء ، مع " مما جعل الحديث كله كأنه لبنة واحدة، ترمي إلي هدف واحد هو ضرورة الالتزام بالجماعة .

* * *

(١) البلاغة في السنة النبوية، دكتورة/عزة محمد جدوع ص٩٥.

(٢) الأمر هنا متضمن من خلال أسلوب الشرط.

الحديث الرابع: لزوم الجماعة عصمة من الاختلاف.

عن أنس بن مالك –رضي الله عنه– قال: سمعت رسول الله – ﷺ – يقول : «إِنَّ أُمَّتِي لَا تَجْتَمِعُ عَلَى ضَلَالَةٍ، فَإِذَا رَأَيْتُمُ اخْتِلَافًا فَعَلَيْكُمْ بِالسَّوَادِ الْأَعْظَمِ»(١).

ومقام الحديث حث علي الاجتماع، وبيان ما يُفعل عند التفرُّق والاختلاف.

وسياق الحديث يتقاسمه الخبر والإنشاء، حيث بدأ بالخبر " إن أمتي لا تجتمع علي ضلالة "، تلاه الأمر الواقع في جواب الشرط : " فإذا رأيتم اختلافاً فعليكم بالسواد الأعظم ".

وابتداء الحديث بالخبر " إن أمتي لا تجتمع علي ضلالة " يتناسب أشد المناسبة مع نهايته؛ فالمقصد الأساس في الحديث هو الحث علي لزوم الجماعة وقت الفتن والاختلاف، وهو ما بينه نهاية الحديث ، فكأن بداية الحديث تعليل لنهايته، فلسائل أن يسأل : لِمَ أمرنا الرسول – ﷺ – بالسواد الأعظم عند الاختلاف، ولم يأمرنا باعتزال الجميع مثلا؟ فيكون الجواب: لأن أمته– ﷺ – لا تجتمع علي ضلالة، ولعلّ السر في تقديم الإجابة هنا هو إغناء السائل عن أن يسأل، وهذه بلاغة نبوية عالية .

---

(١) سنن ابن ماجه لأبي يزيد عبدالله محمد بن يزيد القزويني، تحقيق: بشار عواد معروف، كتاب: الفتن، باب: السواد الأعظم، حديث رقم (٣٩٥٠)، طبعة: دار الجيل،١٤١٨ه، ١٩٩٨م.
والسواد الأعظم: قيل: جملة الناس ومعظمهم التي اجتمعت على طاعة السلطان، وسلوك المنهج القويم. وقيل: التي اجتمعت على طاعة السلطان، وبخعت لها بَرا كان أو فاجرا، ما أقام الصلاة، وقيل لأنس: أين الجماعة؟ فقال: مع أمرائكم. لسان العرب لابن منظور (سود)، ط: دار صادر– بيروت، الثالثة، سنة: ١٤١٤هـ.

وإيراد الجملة التعليلية " إن أمتي لا تجتمع علي ضلالة " مؤكدة بإن، و اسمية الجملة لتقرير هذه الحقيقة، وتثبيتها في النفوس ، والتأكيد علي أن هذه الحقيقة – عدم الاجتماع علي ضلالة – صفة ثابتة لهذه الأمة حتى إذا حدث خلاف لزم المسلمون جماعتهم ونفوسهم مطمئنة متيقنة أنهم علي الحق؛ لأنهم لزموا الجماعة، وهي لا يمكن أن تجتمع على ضلالة كما أخبر النبي – ﷺ –.

والإتيان بالمضارع المنفي " لا تجتمع " إشارة إلى تجدد هذا الأمر ، وأن الأمة الإسلامية لا يمكن أن تجتمع في أي وقت من الأوقات، أو زمن من الأزمنة علي ضلالة، وهذا مما يزيد في تثبيت النفوس وتقرير هذه الحقيقة ، مما يشير إلي تجدد حفظ الله – تعالي – لجماعة المسلمين، وحمايتهم من الزيغ والضلال . وتنكير " ضلالة " لإفادة العموم والشمول : أي أنها لا تجتمع علي أي ضلالة من الضلالات، أو أن يأتيها انحراف من أي جهة مادامت مجتمعة، وهذا أيضا باعث قوي علي لزومها .

ومن الملاحظ أن هذا المعني الذي اشتملت عليه هذه الجملة قد جاء في الحديث السابق الذي رواه الترمذي – رحمه الله – : " إن الله لا يجمع أمة محمد – ﷺ – علي ضلالة " مما يحدو الملتقي إلي التأمل في هذه المفارقة في التعبير بينهما، حيث اختلفت الصيغة هنا بإضافة الأمة إلي الضمير العائد علي النبي – ﷺ – " أمتي "، وفي الحديث السابق أضيفت إلي الاسم الظاهر " أمة محمد "– ﷺ –، ولا شك أن كلاً من الصيغتين قد لاءمت سياقها؛ فالحديث السابق لما كانت ألفاظه وتراكيبه أطول اقتضي ذلك الإظهار " أمة محمد " تناسبا مع إظهار لفظ الجلالة " الله " وهو مالم نره في الحديث الذي معنا الذي يتسم بالإيجاز،

فاقتضي ذلك إضافة الأمة إلي الضمير تناسبا مع الإيجاز؛ لأن المقام هنا حديث عن اختلاف وتفرق، وهو مما تضيق به النفس ، فناسبه الإضافة إلي الضمير، هذا فضلا عما فيه من تنويع في التعبير يساعد علي كمال الحث علي لزوم الجماعة، وهذا التنويع يتناغى مع معظم الأحاديث التي ذكرها النبي – ﷺ – في الحث علي لزوم الجماعة، حيث إنها متقاربة المعني تقاربا شديداً مع اختلاف يسير في اللفظ، وهناك رواية ثالثة عن سيدنا أبي ذر – رضي الله عنه – عن النبي – ﷺ – أنه قال : " اثنان خير من واحد، وثلاثة خير من اثنين، وأربعة خير من ثلاثة، فعليكم بالجماعة، فإن الله – عز وجل – لا يجمع أمتي إلا على هدي "[1]، و التأكيد فيها أقوي من التأكيد في الحديثين السابقين ، حيث أكدت بإن، واسمية الجملة، والقصر عن طريق النفي والاستثناء، وهو أقوي طرق القصر، كما أنها أيضا اختلفت عن رواية سيدنا أنس –رضي الله عنه – التي معنا ، في الترتيب بين العلة والمعلول، ففي حديث أنس –رضي الله عنه –تقدمت العلة " إن الله لا يجمع أمتي علي ضلالة " علي المعلول : " فإذا رأيتم اختلافا فعليكم بالسواد الأعظم " أما حديث سيدنا أبي ذر – رضي الله عنه – تأخرت العلة: " فإن الله –عز وجل– لا يجمع أمتي إلا علي هدي " علي المعلول: " فعليكم بالجماعة "، ولا شك أن هذا التنويع في الأسلوب، وإيراد المعني الواحد بأساليب متنوعة يزيد في التأكيد عليه، وتثبيته في النفوس مما يدل على أهميته.

(١) مسند الإمام أحمد ٢١٩/٣٥، حديث رقم (٢١٢٩٣)، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرون، ط: مؤسسة الرسالة، الثانية، سنة: ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.

وتأكيد النبي – ﷺ – على عدم اجتماع أمته على الضلالة؛ لأنه سأل ربه ذلك وأعطاه ، فقد روي عن أنس – رضي الله عنه – عن النبي – ﷺ – : " أنه سأل أربعا ، سأل ربه أن لا يموت جوعا فأعطي ذلك، وسأل ربه أن لا تجتمع أمته علي ضلالة فأعطي ذلك، وسأل ربه أن لا يرتدوا كفارا فأعطي ذلك، وسأل ربه ألا يغلبهم عدو لهم فيستبيح بأسهم فأعطي ذلك، وسأل ربه أن لا يكون بأسهم بينهم فلم يعط ذلك"(١)، مما يدل علي عناية النبي – ﷺ – وحرصه علي اجتماع أمته وعدم تفرقها .

وبالرجوع إلي الحديث نجد أنه بعد جلاء النبي – ﷺ – لهذه الحقيقة – عدم اجتماع أمته علي ضلالة – يأتي الشرط وجوابه: " فإذا رأيتم اختلافاً فعليكم بالسواد الأعظم " .

واستعمال أداة الشرط " إذا " وهي تدخل على متحقق الوقوع ، دلالة علي أنه لابد من وقوع الاختلاف، وتيقن النبي –ﷺ– من وقوعه، مما جعله يؤكد في سياقات مختلفة على لزوم الجماعة، وهذه حقيقة أكدها الحديث الذى رواه سيدنا " حذيفة من اليمان – رضي الله عنه – سابقا من تحول الأمة من خير إلي شر، وأنه لا يأتي زمان إلا والذى قبله خير منه، ولذلك يرشدنا النبي – ﷺ – مباشرة إلى طريق الخلاص المتمثل في لزوم جماعة المسلمين، مما يبرز خوفه – ﷺ – على أمته، وشدة حرصه على عدم تفرقها، والتعبير بفعل الرؤية " رأيتم "، والرؤية أقوي أنواع الإدراك، توجيه نبوي يدل على شدة حرص النبي–ﷺ–

(١) المستدرك على الصحيحين للحاكم ٢٠٣/١، ح(٤٠٠)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط: دار الكتب العلمية– بيروت، الأولى، سنة: ١٤١١هـ، ١٩٩٠م.

على وحدة المسلمين، حيث يدل التعبير بهذا الفعل على أن المؤمن لا يفعل ذلك إلا إذا تيقن من وقوع الاختلاف حتي لا تحدث فرقة بين المسلمين لمجرد الشبهات .

وإسناد فعل الرؤية إلي ضمير الجميع "رأيتم "، دون أن يقال مثلا : رأيت بتوجيهه إلى الواحد حفاظ على وحدة الأمة حيث لا تكفى رؤية الواحد في الحكم بالاختلاف، وإنما لابد من تيقن جماعة من المسلمين بهذا الأمر حتى لا تكون أمور المسلمين عرضة لآحاد الناس أن يحكموا عليها، وإنما لابد في ذلك من جماعة، مما يظهر حرص النبي – ﷺ – على أمته ، وخوفه عليها .

وتنكير" اختلافا " للعموم والشمول أيضا، أي إذا رأيتم أيَّ اختلاف من أي نوع فعليكم بالسواد الأعظم، وفي هذا حفاظ على وحدة المسلمين حتي لا تتسع هوة الخلاف، ويتفشى خطره في المجتمع المسلم، ولذلك تناسب معه التعبير بالفاء وتكررها "فإذا رأيتم اختلافا فعليكم " إشارة إلي المسارعة في لزوم الجماعة عند تحقق وقوع الخلاف .

وجاء جواب الشرط (عليكم) أسلوب أمر غرضه النصح والإرشاد، إشارة إلى ضرورة الالتزام بالسواد الأعظم عند تيقن الخلاف، فهذا أمر نبوي لا يليق بالمسلم مخالفته، ولذلك تناسب معه التعبير باسم الفعل (عليكم) في جواب الشرط دون أن يقال مثلا : فالزموا أو اذهبوا لما في صيغة اسم فعل الأمر (عليكم) من إلزام قوى، لأنه أمر من جهة العلو، وهو أبلغ في إفادة الالتزام، وأدل على ضرورة الامتثال للأمر .

والتعبير بالباء الدالة على المصاحبة (بالسواد) تأكيد للزوم السواد الأعظم، وتشديد على عدم مفارقته .

واستعمال أفعل التفضيل (الأعظم) واختيار صيغة – ع ظ م – دون أن يقال مثلا: الأكثر لما في اللفظ المعبرّ به من دلالة على عظمة هذه الأمة حال اجتماعها، وأنها أعظم من غيرها، أما الأكثرية فقد دلّ عليها لفظ السواد، مما يدل على أنها أكثر وأعظم من غيرها .

موازنة :

بالتأمل في الأمر بلزوم الجماعة في هذا الحديث يلحظ الملتقى أنه لم يأت على نسق الأوامر السابقة (عليكم بالجماعة)، وإنما اختلفت الألفاظ وإن كان المعنى واحدا، حيث جاء هنا (عليكم بالسواد الأعظم) وجليّ أن مضمون الأمرين واحد – الحث على لزوم الجماعة – مما يجعل الملتقى يتطلع إلى معرفة الفرق بينهما، ولا مراء في أنه بإجالة النظر، وإعمال الفكر سيتين له فرق بينهما اقتضاه المقام، ويتجلى ذلك عند النظر في سياق هذا الحديث فلما كان الأمر بلزوم الجماعة هنا في حالة الاختلاف التي تقتضي انقسام المجتمع إلي جماعات تختلف في أعدادها، اقتضي ذلك التعبير بالسواد الأعظم نظراً لوجود جماعات كثيرة مختلفة، فدل الأمر النبوي على لزوم الجماعة الأكثر، ولذلك فسرها المناوي بأن المعني: (الزموا متابعة جماهير المسلمين وأكثرهم فهو الحق) [١] ولذلك لو عبرّ بلفظ الجماعة لا يستقيم هنا لتعدد الجماعات، أما في الأحاديث الأخرى فلا يوجد اختلاف، وليس هناك

(١) التيسير بشرح الجامع الصغير للمناوي ٦٣٣/١، ط: مكتبة الإمام الشافعي_ الرياض، الثالثة، سنة: ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.

حديث واضح عنه كما هنا فناسبه التعبير بالجماعة، ولذلك ناسب كل من التعبيرين سياقه ومقامه .

وبمعاودة التأمل في الحديث من أوله يلحظ أنه قد تآزرت كل الألوان التعبيرية علي مستوي المفردات والجمل لإبراز المعنى في أبهى صورة وأحسن معرض، وعلى الرغم من أن الحديث يتقاسمه الخبر والإنشاء إلا أن الجملتين مترابطتان أشد الترابط؛ حيث وقعت إحداهما تعليلا للأخرى، وربط بينهما بالفاء مما جعل الحديث كأنه جملة واحدة في غاية الإحكام والإتقان .

* * *

الحديث الخامس: حفظ الله – تعالى – للجماعة

عن أبي مالك الأشعري –رضي الله عنه– أن رسول الله – ﷺ – قال: إِنَّ اللَّهَ أَجَارَكُمْ مِنْ ثَلَاثِ خِلَالٍ: أَنْ لَا يَدْعُوَ عَلَيْكُمْ نَبِيُّكُمْ فَتَهْلَكُوا جَمِيعًا، وَأَنْ لَا يَظْهَرَ أَهْلُ الْبَاطِلِ عَلَى أَهْلِ الْحَقِّ، وَأَنْ لَا تَجْتَمِعُوا عَلَى ضَلَالَةٍ "(١).

ومقام الحديث إخبار بأن الله – تعالى – قد حمى أمة محمد – ﷺ – من أشياء مهلكة، وهى من الخصائص التي اختص الله – تعالى– بها هذه الأمة، ومعلوم أن هذه الأمة خصها الله – تعالى– بأشياء كثيرة، من جملتها ما جاء في هذا الحديث، من أنها رزقت بنبي رحيم بها، لا يمكن أن يدعو عليها مهما بلغ به الأذى كما دعا نوح – عليه السلام– على قومه فهلكوا، وأن لا يمكَّن منهم أهل الباطل فيقضون عليهم مادامت فيهم طائفة قائمة وثابتة على الحق، وأن لا يجتمعوا على ضلالة .

والغرض من الحديث إظهار مكانة هذه الأمة عند الله– تعالى– واختصاصها بميزات ليست لغيرها، تكريما لها .

وقد اتسم نظم التراكيب في الحديث بخصائص وفَّت بالدلالة على الغرض منه، وتجلَّى ذلك فيما يلي : لما كان مقام الحديث إخبار بأشياء اختُصت بها أمة محمد–ﷺ – فقد بنى الحديث على لفظ الخبر، وهو متناسب مع مقام الإخبار.

(١) سنن أبي داود، كتاب الفتن والملاحم، باب: ذكر الفتن ودلائلها، ح(٤٢٥٣).
ومعنى: أجاركم: حماكم ومنعكم وأنقذكم (عون المعبود شرح سنن أبي داود لمحمد شمس الحق العظيم آبادي أبي الطيب ٢١٩/١١، ط: دار الكتب العلمية_ بيروت، الثانية، سنة: ١٤١٥هـ).

فيبدأ الحديث بقوله- ﷺ - "إن الله أجاركم من ثلاث خلال" وهى جملة مؤكدة بـــ(إن)؛ لإفادة تأكيد مدلولها: وهو حفظ الله –تعالى- لهذه الأمة، وحمايته لها، من هذه الثلاث المهلكة.

وهذه الجملة آكد من (تُحفظون أو تجارون من ثلاث) لأنها أدل على إثبات الحماية والحفظ لهذه الأمة، لأن الجملة الفعلية- كما يقول البلاغيون- يؤتى بها عند قصد مجرد الإخبار، فإذا أريد التأكيد أتى بالجملة الاسمية(١).

هذا فضلا عما تفيده الجملة الاسمية من استمرارية الحماية والحفظ لهذه الأمة، وعدم انفكاكه عنها في وقت من الأوقات، ولعلَّ السر في التأكيد هنا هو إبراز مكانة هذه الأمة، وإثبات خيرتها على جميع الأمم، واهتمام الله- تعالى- بها.

وهذه الجملة الافتتاحية: (إن الله أجاركم من ثلاث خلال) تتضمن إبهاما، جاء بقية الحديث إيضاحا له.

فأول هذه الخلال الثلاث: "أن لا يدعو عليكم نبيكم فتهلكون جميعا)، ومعناها: أن الله- تعالى- خصكم بنبي لا يمكن أن يدعو عليكم .

قال صاحب عون المعبود: (أن لايدعو عليكم نبيكم فتهلكون جميعا، كما دعا نوح على قومة، بل كان النبي كثير الدعاء لأمته) (٢).

الثانية: أن لا يظهر أهل الباطل على أهل الحق، وهذا ضمان من الله –تعالى- لأهل الحق بنصرتهم مهما نال منهم أهل الباطل، فلا

(١) ينظر: حاشية الدسوقي، ضمن شروح التلخيص، ٢٢٠/١، ط: مطبعة السعادة- مصر، الثانية، ١٣٤٢هـــ، بتصرف.

(٢) عون المعبود ٢١٩/١١.

يتمكنوا منهم، ولا يمكن أن يطفئوا جذوتهم، وهذه بشارة عظيمة ووعد رباني لهذه الأمة وأنها مهما ضعفت ونال منها عدوها لكنه لن يتمكّن من القضاء عليها.

الثالثة: وهى موطن الشاهد، قوله-ﷺ -:" وأن لا يجتمعوا على ضلالة"، أي لا تتفقون على ضلالة، بمعنى: أنهم لا يحيدون عن الحق فتخلو الأرض منه، ولا يبقى إلا الضلال، فاجتماع الأمة على الضلالة لن يكون.

وإخبار النبي-ﷺ- بعدم اجتماع أمته علي ضلالة حث قوى، وتحفيز باعث على لزوم جماعتها، ما داموا معصومين من الضلالة، حتى يلحق المأمور بركب المعصومين من الضلالة.

وكأن الاجتماع حجة دامغة على صواب رأيها، واتباعها طريق الحق لأن الله –تعالى– لم يكن ليجمعهما على ضلال، (وفيه أن اجتماع أمته حجة وهو من خصائصهم) (١).

وبهذا اتضحت الأمور المبهمة التي بدأ بها الحديث، وظهرت جلية للمخاطب، ولاشك أن الإيضاح بعد الإبهام عرض للمعنى في صورتين: مبهمة أولا؛ مما يحدث تشويقا لمعرفة التفاصيل والدقائق حتى يُزال هذا الإبهام، فإذا جاء الإيضاح بعد هذا التشويق ثبت المعنى في النفس، وتأكد مضمونه لديها، وهذا تأكيد قوى للمعنى .

وبالتأمل يتضح كيف أن النبي -ﷺ- يؤكد على هذه الحقيقة (عدم اجتماع أمته على ضلالة) في أحاديث مختلفة، ومواقع متعددة في كلامة

(١) عون المعبود ٢١٩/١١.

فيبدأ بها الحديث كما في قوله – ﷺ – في الحديث السابق "إن أمتى لا تجتمع على ضلالة، فإذا رأيتم اختلافا فعليكم بالسواد الأعظم"(١).

وقوله "إن الله لا يجمع أمة محمد – ﷺ – على ضلالة، ويد الله مع الجماعة، ومن شذ، شذ في النار"(٢) كما سياتي .

ويختم بها الحديث هنا، ولا شك أن هذا التنويع في مواقع هذه الجملة في كلامه – ﷺ – يدل على اهتمامه بمضمونها، وعنايته – ﷺ – بتثبيت محتواها في النفوس لأهميتها، مما يؤكد الحث على لزوم جماعة المسلمين، وحرصه –ﷺ – على امتثال أمته لهذا الأمر، وتمسكها به .

وبمعاودة التأمل في الحديث يظهر أن أسلوب الإيضاح بعد الإبهام وما يتضمنه من تشويق وتأكيد للمعنى، هو الأسلوب المسيطر على الحديث من أوله إلى آخره، وتضامن معه في تأكيد المعنى، التأكيد بإن في مطلع الحديث ؛ لتأكيد هذه الخصوصيات الثلاث التي اختصت بها أمة محمد – ﷺ – ومنها عدم اجتماعها على الضلالة، مما يبعث على لزوم الجماعة، ويحث عليه.

* * *

(١) سنن ابن ماجه، كتاب: الفتن، باب السواد الأعظم، ح(٣٩٥٠).

(٢) سنن الترمذي، كتاب: الفتن، باب: ما جاء في لزوم الجماعة، ح(٢١٦٧)

الحديث السادس: لزوم الجماعة سبب في رحمة الله–تعالى–

عن النعمان بن بشير – ﷺ– قال: قال رسول الله –ﷺ – : «الْجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ، وَالْفُرْقَةُ عَذَابٌ» (١).

والغرض من هذا الحديث الحث علي لزوم الجماعة، والتحذير من مفارقتها، ببيان الآثار المترتبة علي لزومها من الخير والرحمة ترغيبا فيها، وأيضا الترهيب من مفارقتها ببيان الأثر المترتب عليه أيضا وهو العذاب.

وقد جاءت ألفاظ الحديث وتراكيبه متناسقة مع الغرض منه، و مؤدية له، وذلك من خلال عدة مظاهر أهمها:

الأول: جاء هذا الحديث في جملتين شملهما أسلوب المقابلة، فالجماعة في مقابلة الفرقة، والرحمة في مقابلة العذاب، وقد أبرزت هذه المقابلة مدي المفارقة الكبيرة بين الجماعة والفرقة، وجسّدت البون الشاسع بينهما، فإذا كانت الجماعة هي عين الرحمة فإن الفرقة هي عين العذاب، ولهذا أسندت الرحمة للجماعة مباشرة ، وأسند العذاب للفرقة مباشرة أيضا .

الثاني: الوصل بين الجملتين (الجماعة رحمة والفرقة عذاب)، والوصل هنا للتوسط بين الكمالين حيث اتفقت الجملتان في الخبرية لفظا ومعنى، ووجد الجامع بينهما وهو التضاد.

ولعل السر في بلاغة الوصل هنا هو عدم الاقتصار على الخيرية فقط في لزوم الجماعة، وإنما بيان الأثر المترتب علي العكس وهو

(١) مسند الشهاب القضاعي لمحمد سلامة جعفر القضاعي ٤٣/١، ح(١٥)، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة– بيروت، الثانية، سنة: ١٤٠٧هـ، ١٩٨٦م.

العذاب المترتب على الفرقة، وهذا مما يزيد الحث علي لزوم الجماعة.

وقد تآزر الوصل في الحديث مع المقابلة في إبراز المفارقة العجيبة بين الحالتين كما في قوله تعالي : ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ سورة الانفطار.

فالتعبير النبوي لم يقتصر على بيان فضل الجماعة والترغيب في لزومها ، وإنما أردفه بالتحذير من التفرق وبيان عاقبته، والترغيب والترهيب وسيلتان من الوسائل التي تدفع العبد نحو تنفيذ الأوامر، واجتناب النواهي بدوافع داخلية –وهي لاشك أقوي من الدوافع الخارجية – نابعة من الرغبة والرهبة ، كما أنهما (من الأساليب البلاغية التي تعمق الإحساس بالأشياء، وتزيد النفوس بصراً بالحقائق، وذلك لأنها تختص بالجمع بين الأشياء المتناقضة) [1] كما أنها (تعطي الأسلوب قدرة على الإيقاظ، ويصير الحس معها كأنه يكون مستنفراً مثارا حين يحس بما وراء هذه المتناقضات من صراعات وتجاذبات وهو يثب علي قممها المتناقضة) [2] وهذا تأكيد للمعني المراد .

الثالث : التعبير بالجملة الاسمية (الجماعة رحمة) ، (الفرقة عذاب) للإشعار بدوام الرحمة لمن يلازم الجماعة، ودوام العذاب للمفارق لها، وهذا تأكيد للمعني، حيث إن (الجملة الاسمية تفيد الثبات والاستمرار وهما من عناصر القوة و التوكيد) [3]، وفي هذا زيادة حث

(١) التحبير، د/محمود توفيق سعد ص١٤٨، ط: مكتبة العمروسي– القاهرة.

(٢) قراءة في الأدب القديم، د/محمد أبو موسى ص٨٨، ط: مكتبة وهبة– القاهرة.

(٣) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، د/محمد أبو موسى ص٤١٨، ط: مكتبة وهبة– القاهرة، الثانية، سنة: ١٤٠٨هـ، ١٩٩٨م.

علي لزوم الجماعة، والتحذير من الفرقة .

الرابع : في تقديم الجماعة على الفرقة اهتمام بها ، وبيان لعظم منزلتها، فالتقديم للتشريف والتعظيم، وقد جاء هذا التقديم على طريقة العرب في التقديم حيث (يقدمون الذي بيانه أهم لهم وهم ببيانه أعني، وإن كان الجميع يهمانهم ويعنيانهم) [١] ، كما أن التقديم متناسب مع مقصود الحديث – الحث علي لزوم الجماعة – .

الخامس : الإيجاز بالقِصَر، فالحديث على قصر ألفاظه إلا أنه احتوي معاني كثيرة، ومعلوم أن الإيجاز من أبرز خصائص البيان النبوي، حيث أوتي – ﷺ – جوامع الكلم للمعاني، فبلغ في ذلك الكمال في البيان البشري، فقد روي عن عائشة – رضي الله عنها – أنها قالت : " إن رسول الله –ﷺ – كان يحدث حديثا لو عده العاد لأحصاه" [٢]، وخير شاهد علي صدق هذا الكلام هو الحديث الذي بين أيدينا .

وبعد، فالحديث – كما سبق – في بيان الآثار المترتبة علي لزوم الجماعة، والترغيب فيها، وقد بني الحديث علي أسلوب المقابلة بين الأثر المترتب علي الجماعة متمثلا في الرحمة، والأثر المترتب على الفرقة متمثلا في العذاب، وكان هذا الأسلوب مناسبا للمقام أشد المناسبة؛ لما يبرزه هذا الأسلوب من بيان المفارقة بين الحالين ليترك للإنسان حرية الاختيار حيث يُظهر له الطريقين، وما عليه إلا أن يختار، وتآزر مع المقابلة في الحديث الوصل والتقديم وغيرهما، وتوفرت كل هذه الألوان لتأكيد المعني، وإبرازه في أبهي صورة .

---

(١) الكتاب لسيبويه ٣٤/١، تحقيق: عبد السلام هارون، ط: دار الجيل–بيروت.

(٢) صحيح البخاري، كتاب: المناقب، باب: صفة النبي ﷺ (٣٣٧٤).

الحديث السابع : لزوم الجماعة سبب في معية الله تعالى [١].

عن عبدالله بن عمر – رضي الله عنهما – أن النبي –ﷺ – قال : "إِنَّ اللَّهَ لَا يَجْمَعُ أُمَّتِي – أَوْ قَالَ: أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ– عَلَى ضَلَالَةٍ، وَيَدُ اللَّهِ مَعَ الجَمَاعَةِ، وَمَنْ شَذَّ شَذَّ إِلَى النَّارِ"[٢].

ومقام الحديث – كما هو واضح – حث على لزوم الجماعة ، و تحذير وتخويف من مخالفتها .

ولما كان المقصد من الحديث الحث والتخويف فقد جاءت مفرداته وتراكيبه مرتبطة ارتباطا وثيقا ومتساوقا مع الغرض منه .

وقد اشتمل الحديث على ثلاث جمل يربط بينها وحدة الغرض – الحث على لزوم الجماعة – وجاءت على نمط فريد في الترتيب، حيث جاءت الجملة الأولى " إن الله لا يجمع أمة محمد على ضلالة " ومعناها : أن الله عصم الجماعة من الضلالة، وهذا ترغيب قوى في اتباعها ، وقد أكدت هذه الجملة بإن واسمية الجملة للمبالغة في الترغيب في لزوم الجماعة ، فالإخبار بعصمة الجماعة من الضلالة حث بالغ على لزومها حتى يدخل العبد في جملة المعصومين، وإضافة الأمة إلى النبي– ﷺ– أو ضميره تشريف و تعظيم لهذه الأمة، فأمة تنتسب لهذا النبي – ﷺ – جدير بها أن تحظى بعصمة الله – سبحانه – و أن تكون في حمايته .

---

(١) ذكرت هذا الحديث في مبحث الترغيب، مع أن فيه ترهيبا أيضا؛ لأنه اشتمل على ثلاث جمل، الأولى والثانية تتضمنان ترغيبا، والثالثة تتضمن جانب الترهيب، فغلّبت جانب الترغيب على جانب الترهيب.

(٢) سنن الترمذي، كتاب: الفتن، باب: ما جاء في لزوم الجماعة، ح(٢١٦٧).
ومعنى شذ: انفرد عن الجمهور. لسان العرب، (شذذ).

وقوله: " ويد **الله** مع الجماعة " ترغيب ُثان، وحث بالغ على لزوم الجماعة، فيكفي المنتسب لجماعة المسلمين شرفا أن يكون محطّا لعناية الله – تعالى – ورعايته، ومعني هذه الجملة كما ذكر ابن الأثير: " أن الجماعة المتفقة من أهل الإسلام في كنف الله ووقايته فوقهم، وهم بعيد من الأذى والخوف، فأقيموا بين ظهرانيهم"(١)، والتعبير باليد مجاز مرسل علاقته السببية، فاليد سبب العون والرعاية .

وبالتأمل يتضح أن كلمة اليد هنا يتسع معناها فتشمل المعونة والحفظ والحماية والتوفيق والرعاية والتأييد والنصر، وهذه المعاني كلها وغيرها مما يتقارب معها تتحملها كلمة اليد، فإذا كنا مجتمعين أعاننا الله وحفظنا ورعانا وأيدنا ونصرنا .

والتعبير بالجار " على " وما يدل عليه من علو دون " مع " الواردة في الرواية الأخرى(٢)، للدلالة على تمكن الرعاية من الجماعة، وشمولها لهم وهذا مما يبالغ في الحث على لزومها .

ولم يكتف النظم النبوي بالترغيب في الجملتين السابقتين، وإنما أتبعها بالترهيب من مخالفة الجماعة، وهذه سمة من سمات البيان النبوي في معظم أحاديث الحث على لزوم الجماعة، وقد حمل هذا الترهيب قوله – ﷺ – : " ومن شذ شذّ في النار " وهذا تحذير قوى من التفرق ومخالفة ما عليه جماعة المسلمين "، فالذي يتخلف عن جماعة المسلمين يكون مصيره جهنم والعياذ بالله .

---

(١) النهاية في غريب الحديث ٢٩٣/٥.

(٢) هذه الرواية وردت عن ابن عباس، رواها الترمذي أيضا في سننه، كتاب: الفتن، باب: لزوم الجماعة، ح(٢١٦٦).

والتعبير بالشذوذ له دلالته، حيث يصور من يخالف جماعة المسلمين بأنه إنما يخالف ما عليه الطبائع السليمة، فالطبع السليم يقود صاحبه إلى لزوم جماعة المسلمين والتمسك بهم؛ حتى لا ينطبق عليه وصف الشذوذ؛ فهو وصف يأنف منه كل إنسان سويّ.

وقوله: "شذّ في النار" مبالغة في الترهيب؛ حيث يوحي لفظ الشذوذ بالانفراد، أي أن المفارق للجماعة يعذَّب في النار منفردا، وهذا عذاب نفسي قاسٍ يضاف إلى العذاب الجسديّ؛ فالانفراد في جهنم جعله الله – تعالى– في عظائم الذنوب كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ ﴾ سورة النساء.

وقوله – تعالى – بعد آيات المواريث: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ ﴾ سورة النساء، مما يدل على أهمية الجماعة، ويؤكد المبالغة في الحث على لزومها.

ويكفي في ترهيب المفارق للجماعة أنه يشذ في النار مباشرة، وهذا مستفاد من التعبير بالجار " في " دون " إلى " حيث دلّ على أن الذى يشذ عن الجماعة يسقط في النار مباشرة دون مقدمات، وهذا تحذير بالغ من مخالفتها .

والحقيقة أن الذي يخالف الجماعة لا يشذ في النار، وإنما يشذ إلي التفرق والبعد عن الجماعة الذى يكون سببا في دخول النار، وهذا مجاز

مرسل علاقته المسببية، حيث ذكر المسبب – دخول النار – وأراد السبب – التفرق – وهذا مما يبالغ في التحذير من مخالفة الجماعة.

وبمعاودة التأمل في الحديث من بدايته تجد أن مفرداته وتراكيبه توافرت كلها علي الحث علي لزوم الجماعة، واستعمل الترغيب والترهيب سلاحين قويين للحث والتخويف من المخالفة، مما جعل الحديث كله كأنه كلمة واحدة .

ويجدر بالذكر أن الإمام الترمذي – رحمه الله – ذكر حديثا آخر مروياً عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : قال رسول الله – ﷺ – : " يد الله مع الجماعة "(١) ، وقد اقتصر فيه النبي – ﷺ – علي جملة واحدة ترغب في ملازمة الجماعة، وهي أن يد الله – سبحانه – تكون معهم، ولا تعارض بين الروايتين، ويمكن التوفيق بينهما بأنه إذا كان النبي – ﷺ – قد أخبر في الحديث المروي عن ابن عمر – رضي الله عنهما – أن يد الله علي الجماعة ، وأخبر في الحديث المروي عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أن يد الله مع الجماعة، فهذا دليل علي اهتمام النبي – ﷺ – بلزوم الجماعة، واعتنائه بشأنها، مما جعله يركز عليه في سياقات مختلفة للتأكيد عليه، فمعونة الله تعلو الجماعة وتتوسطهم وتشملهم من جميع الجهات، وهذا تأكيد قوي، وترغيب شديد في الحث علي لزومها .

* * *

(١) سبق تخريجه

الحديث الثامن: لزوم الجماعة طريق لمرضاة الله تعالى.

عن أبي هريرة –رضي الله عنه– قال : قال رسول الله – ﷺ– :" إِنَّ اللهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلَاثًا، فَيَرْضَى لَكُمْ: أَنْ تَعْبُدُوهُ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ: قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ"(١) .

في هذا الحديث " إثبات الرضي لله ، وذكر متعلّقاته، وإثبات الكراهة منه ، وذكر متعلّقاتها ، فإن الله– جل جلاله – من كرمه على عباده ، يرضى لهم ما فيه مصلحتهم، وسعادتهم في العاجل، وذلك بالقيام بعبادة الله وحده لا شريك له، وإخلاص الدين له بأن يقوم الناس بعقائد الإيمان وأصوله، وشرائع الإسلام الظاهرة والباطنة، وبالأعمال الصالحة، والأخلاق الزاكية، كل ذلك خالصا لله موافقا لمرضاته، على سنة نبيه، ويعتصموا بحبل الله، وهو دينه الذى هو الوصلة بينه وبين عباده، فيقوموا به مجتمعين متعاونين على البر والتقوى .... ثم ذكر ماكره الله لعباده، مما ينافي هذه الأمور التي يحبها وينقضها(٢).

قال النووي : الرضي والسخط والكراهية من الله – تعالي – المراد بها أمره ونهيه، وثوابه وعقابه، أو إرادته الثواب لبعض العباد، والعقاب لبعضهم(٣).

---

(١) صحيح مسلم، كتاب: الأقضية، باب: النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة، ح(١٧١٥).

(٢) بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار لعبد الرحمن ناصر السعدي ٢٠٧/١، تحقيق: عبد الكريم آل الدريني، ط: مكتبة الرشد، الأولى، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠٢م.

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم ١٤٤/٦، ط: دار إحياء التراث العربي– بيروت، الثانية، سنة: ١٣٩٢هـ.

وعلى هذا فلفظ الحديث وإن كان ظاهره الخبر فهو في حقيقتة إنشاء حيث جاء الأمر في صورة الخبر " إن الله يرضي لكم ثلاثا " فهذا في حقيقتة أمر بفعل هذه الثلاثة التي يرضي عنها .

قال المناوي – رحمه الله – في قوله : " إن الله يرضي لكم ثلاثا "، أي يأمر بثلاث(١)، وكذلك قوله – ﷺ– " ويكره لكم ثلاثا "، نهي في صورة الخبر.

وإيراد الأمر في صورة الخبر حث على الفعل، وتحفيز إليه، وهذا نهج تربوي عالٍ يزيد الحث على الفعل، ويدفع المأمور إلي الامتثال للأمر بدوافع داخلية نابعة من الرغبة في الامتثال للأمر، فالأمر المباشر بطبيعته ثقيل على النفس، مما يجعلها تنفر عن تنفيذ المأمور به، وفرق كبير بين أن تقول لولدك: افعل كذا، وبين أن تقول له : يسعدني أن تفعل كذا، فالقول الأخير يجعله يبذل قصاري جهده متفانيا في تنفيذ المأمور به؛ ولهذا كان البيان النبوي غاية في الدقة حين أورد الأمر هنا عن طريق الخبر " إن الله يرضي " ليدفع العبد نحو التنفيذ والامتثال، فيقبل على الفعل محبا له، راغبا في تحصيله حتي يحقق رضي الله– تعالى – عنه، ولا شك أن تحقيق رضي الله – تعالى – هي غاية كل مسلم، لذلك وضعها النبي – ﷺ –في مطلع الحديث، وقدمها على ما يكرهه الله – تبارك وتعالى– وهذا مما يزيد الحث على الامتثال للمأمور به.

وبني الحديث على أسلوب الجمع والتقسيم، حيث جمع في قوله : " إن الله يرضي لكم ثلاثا " وقوله: " ويكره لكم ثلاثا " ثم قسَّم بعد ذلك في

(١) التيسير بشرح الجامع الصغير للمناوي ٥٥٢/١.

بقية الحديث، فاستولت هذه الصورة على الحديث كله فأفاد التأكيد والمبالغة؛ حيث جعل المعنى يأتي في صورتين: مجملة ومفصلة، وهذا لا شك يجعل المعنى أثبت في الذهن وأقوى في الإدراك، وفيه إيضاح بعد إبهام تضمن تشويقا، وإثارة انتباه، وهو ما يعود على المعنى بالتأكيد والمبالغة .

واختصاص هذه الثلاث بالذكر: العبادة، وعدم الإشراك، والاعتصام وعدم التفرق اهتمام بها، إذ هي أصل الدين وأساس كل شيء، وعليها مدار قبول الأعمال، فالله – تعالى – يرضي لعباده كل ما فيه الخير والصلاح، لكنه خص هذه الثلاث لأهميتها، والاعتناء بها .

وإيثار التعبير باللام دون " عن " و" من" وتكراره في قوله: " يرضي لكم " ويكره لكم "، دون أن يقال: يرضي عنكم بثلاث، ويكره منكم ثلاثا، إشارة إلي أن فائدة امتثال الأوامر والنواهي التي وردت في الحديث راجعة إليهم، وثوابها خاص بهم .

وفصلت جملة " يرضي لكم أن تعبدوه " عما قبلها للاستئناف البياني، حيث أثارت الجملة قبله سؤالا مفاده: ماهي هذه الثلاث التي يرضاها الله لنا؟ فجاء الجواب: يرضي لكم، ولا يخفي ما فيه من إيجاز بحذف السؤال، وإغناء للسائل عن أن يسأل.

وبعد هذا الاستهلال البديع المشوق في الحديث تأتي الأوامر الثلاث ومنها : "أن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ".

قال النووي – رحمه الله –: " قوله – ﷺ – " ولا تفرّقوا " أمر بلزوم جماعة المسلمين، وتألف بعضهم ببعض، وهذه إحدى قواعد

الإسلام "[١] و معني: " لا تفرقوا " لا تختلفوا في ذلك الاعتصام كما اختلف أهل الكتاب، وحذفت التاء فيه تخفيفا .

والنهي عن التفرق بعد الأمر بالاعتصام يشير كما ذكر ابن كثير إلي "أن المسلمين عند اتفاقهم من الخطأ ضمنت لهم العصمة "[٢] ، وأيضا ضمن لهم الفوز والظفر.

ذكر القرطبي – رحمه الله – :" قال ابن عباس لسماك الحنفي : الجماعة الجماعة، فإنما هلكت الأمم الخالية لتفرقها، أما سمعت الله – عز وجل – يقول : ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ [٣]، مما يدل على أهمية الجماعة ، وتأكيد لزومها .

وورود الأمر بالاعتصام بحبل الله ولزوم الجماعة المشتمل عليه قوله: " و لا تفرقوا " بعد الأمر بالعبادة والنهي عن الإشراك، إعلاء لقدر الجماعة، و تأكيد للزومها، ووجوب التمسك بها، حيث جعلها النبي – ﷺ– تقف جنبا إلي جنب مع العبادة وعدم الاشراك .

وإيثار التعبير بالنهي " لا تفرقوا " عن الأمر كأن يقال مثلا: وأن تعتصموا بحبل الله جميعا وتلزموا الجماعة، فضلا عما فيه من توافق مع ما جاء عليه القرآن الكريم في قوله تعالي: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ آل عمران:١٠٣.

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ١٤٤/٦

(٢) تفسير ابن كثير ٥١٤/١

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٦٤/٤، تحقيق: هشام البخاري، ط: دار عالم الكتب– الرياض، سنة: ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٣م.

فقد ساعد علي الانسجام بين الجمل في الحديث ، فالجملة قبلها: "يرضي لكم أن تعبدوه ، و لا تشركوا به شيئا" أمر ونهي، فاقتضي التناغم في الحديث أن تأتي الجملة التالية: "أن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا " أمر ونهي أيضا، مما يحقق التناغم الصوتي والانسجام بين تراكيب الحديث .

وبعد، فقد تنوعت وسائل الترغيب في الأحاديث التي وردت في الحث على لزوم الجماعة، فكان لزوم الجماعة نجاة من الفتن في الحديث الأول، كما كان طهارة من الغل في الحديث الثاني، وفي الحديث الثالث كان طريقا إلى الجنة، وفي الحديث الرابع يجعلها النبي – ﷺ – عصمة من الاختلاف، وفي الحديث الخامس كانت الجماعة سببا في رحمة الله – تعالى –، كما كانت سببا في معيته أيضا في الحديث السابع، كما جُعلت طريقا لمرضاة الله –تعالى – في الحديث الثامن، ولاشك أن هذا التنويع في أساليب الترغيب يدل على أهمية المرغَّب فيه "لزوم الجماعة"، وحرص النبي – ﷺ – على الامتثال له، والتمسك به؛ فاستدعاه ذلك إلى تنويع وسائل الإغراء والتحفيز ليدفع المسلمين إلى الإقبال عليه بهمّة نابعة من الرغبة الداخلية في تحصيله حتى يحصلوا على هذه العطاءات المختلفة، وهذا حثّ قوي على لزوم الجماعة.

* * *

المبحث الثاني

الحث علي لزوم الجماعة في سياق الترهيب والذمّ .

الحديث الأول: مفارقة الجماعة خروج عن الدين.

عن أبي ذر – رضي الله عنه – قال : قال – رسول الله – ﷺ – : "مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ شِبْرًا، خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ" (١).

ومعني الحديث: من فارق جماعة المسلمين، وخرج عليهم فإنه يكون بذلك قد ضلَّ وتاه.

ولفظ الحديث يحمل وعيداً وتهديدا لمن يفارق الجماعة بالخروج من الدين.

وجاء البيان النبوي في الحديث من جوامع كلمه – ﷺ – حيث احتوت ألفاظه القليلة على معاني كثيرة؛ فقد عُرض الحديث في قالب أسلوب الشرط – الذي استغرق الحديث كله – الذي يقوم علي إحكام النصّ ودقته، لتعلق المقدمة بالنتيجة وارتباطها بها .

كما أن مجيء المعنى في صورة الشرط وجوابه يضع النتيجة بين يدي المتلقي واضحه ظاهرة، فنتيجة مفارقة الجماعة الهلاك والضلال، وهذا هو ما يريد الحديث الوصول إليه من خلال التهديد والتخويف.

وافتتح الحديث باسم الشرط " مَنْ " لإفادة العموم ، وفي هذا إشعار بأن الكلام موجَّه إلي جميع المسلمين دون " استثناء " لما في " مَنْ" من إبهام يجعله يشمل كل الأسماء، فالجميع مطالب بلم الشمل، والاجتماع

(١) مسند الإمام أحمد ٣٥/٤٤٥، ح(٢١٥٦١)

والاتحاد، وجعل المفارق للجماعة في موقع فعل الشرط لينصبَّ الجزاء عليه، لأنه هو المقصود بالترهيب و التخويف .

واستعمال " شبرا " حثّ بالغ علي لزوم الجماعة، وعدم الانفكاك عنها ولو قدراً يسيرا.

وقوله : " ربقة الإسلام " استعارة رائعة ، فالربقة في الأصل : عروة تُجعل في عنق البهيمة أو يدها تمسكها[1]، فاستعيرت هنا يعني: حدوده و أحكامه وأوامره ونواهيه، وقد صورت الاستعارة من خرج من الجماعة بالدابة التي انفلتت من عقالها فضلّت وتاهت، ولم يعد لها صاحب يحميها، مما يبرز أهمية لزوم الجماعة، ويؤكد ما ذكره الرسول – ﷺ – في الحديث السابق، بأن يد الله علي الجماعة تحوطهم وتحميهم، وإضافة الربقة إلي الإسلام تشريف وتعظيم لها ، وإعلاء لشأنها .

وبعد، فالحديث علي إيجازه – وقلة ألفاظه – بيّن أهمية الجماعة، ورهّب من مفارقتها بأبلغ لفظ مما يظهر حرص الرسول – ﷺ – علي تماسك أمته، لأنه يعرف أن آفتها وهلاكها في التفرق والتشرذم، فيربط لهم لزوم الجماعة بالدين، مصوراً من ينفرد عنها بمن ارتدَّ عن دينه، مما يؤكد أهمية لزومها، والحرص علي عدم الانفكاك عنها بأبلغ لفظ وأوجزه.

* * *

(١) لسان العرب (ربق).

الحديث الثاني : مفارقة الجماعة سبب في الموت علي الكفر

عن ابن عباس – رضي الله عنهما – عن النبي –ﷺ – قال : «مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الجَمَاعَةَ شِبْرًا فَمَاتَ، إِلَّا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»(١).

والغرض من الحديث الحث علي السمع والطاعة لولاة الأمور، ولزوم الجماعة، والتحذير من مخالفتها .

وسياق الحديث قائم علي الشرط المكرر وجوابه، وفي ثنايا الشرط والجواب يحمل الحديث ألواناً بلاغية أخري تسهم في جلاء المعني ووضوحه، فقوله – ﷺ –: "من رأي من أميره شيئا يكرهه " شرط جوابه " فليصبر عليه"، وهذا الشرط وإن كان ظاهره يوحي بلزوم السمع والطاعة لولاة الأمور، فإن حقيقته تأكيد للزوم الجماعة، إذ الجماعة لا تكون إلا تحت إمارة توجهها وتحافظ علي مصالحها، فالأمر بالصبر علي الأمير هو في حقيقة أمر بلزوم الجماعة، والتعبير بفعل الرؤية " رأى " إشارة إلي ضرورة التحقق، فلا يكفي العلم أو الإخبار من أحد بأنه صدر من الأمير شيء يكرهه العامة، وإنما لابد من الرؤية بالعين المجردة، فالرؤية أقوي أنواع الإدراك، فلابد من التأكد والتيقن؛ فالأمراء – غالبا – ما يكونون محلا للشائعات المغرضة من الحاقدين والمفسدين، ولذلك جاء التعبير به ماضيا " رأي " دلالة علي تحقق الرؤية، مما يظهر حرص الرسول –ﷺ – علي عدم تفرق

(١) صحيح البخاري، كتاب: الفتن، باب: قول النبي ﷺ: (سترون بعدي أمورا تنكرونها) ، ح(٦٦٤٦).

أمته، وعدم الخروج على أمرائها حتي لا تنتشر الفوضى في المجتمعات .

وتنكير " شيئا " للتعميم، أي: أيّ شيء، وذلك سداً للذرائع حتي يغلق كل الأبواب التي قد تكون منفذا يهدد كيان الجماعة المسلمة ويفرّق وحدتها، ولذا جاء باقي الحديث مفهماً هذا المعني في قوله: " فإنه من فارق الجماعة شبرا فمات إلا مات ميتة جاهلية " فكأن هذه الجملة تعليل وتأكيد لما قبلها، وهو الحث علي لزوم الجماعة؛ ولذلك افتتحت بالفاء التعليلية، وأكدت الجملة بإن " فإنه من فارق الجماعة " لتأكيد الحث علي لزوم الجماعة، والمبالغة في التخويف والتحذير من مفارقتها، تناغم معه التعبير بلفظ " شبرا " وما يدل عليه من كناية عن القدر اليسير، لتأكيد اللزوم، حيث أفاد هذا اللفظ عدم مفارقة جماعة المسلمين ولو كان قدراً يسيرا يقدر بالشبر، تبعه التخويف الشديد الذي يدل عليه جواب الشرط " فمات إلا مات ميتة الجاهلية "، أي : " علي صفة موتهم من حيث هم فوضى لا إمام لهم "[1].

وذكر الحاكم– رحمه الله– أن هذه الجملة ذات احتمالين: فذكر أنه " ليس المراد أنه يموت كافراً بل يموت عاصيا، ويحتمل أن يكون التشبيه علي ظاهره، ومعناه : أنه يموت مثل موت الجاهلي وإن لم يكن هو جاهليا، أو أن ذلك ورد مورد الزجر والتنفير وظاهره غير مراد، ويؤيد أن المراد بالجاهلية التشبيه قوله في الحديث الآخر: "من خالف جماعة المسلمين شبرا فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه "[2] .

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ٢٣٨/١٢.

(٢) المستدرك على الصحيحين ٢٠٣/١، ح(٤٠٢)

ويبدو لي – والله أعلم – أن احتمال التشبيه أقوي لما يحمله من ترهيب قوي ، وأيضا للحديث الذي ذكره الحاكم الذي يؤيد هذا الاحتمال، وكذلك إخبار النبي – ﷺ – في حديث آخر وأمر المسلمين بقتل من يحاول تفريق جماعتهم ،وضربه بالسيف كائنا من كان، والمسلم العاصي لا يؤمر بقتله مباشرة، ولذلك قال الصنعاني في معني الحديث الذي معنا : " دلّت هذه الألفاظ علي أن من خرج علي إمام قد اجتمعت عليه كلمة المسلمين فإنه قد استحق القتل لإدخاله الضرر علي العباد"[١] وهذا ترهيب قوي لمن يفارق جماعة المسلمين .

* * *

(١) سبل السلام للصنعاني ٢٦١/٣، ط: الحلبي، الرابعة، ١٣٧٩هـ، ١٩٦٠م.

الحديث الثالث : تهديد من يحاول تفريق الجماعة بالقتل.

عن عرفجة بن شريح الأشجعي –رضي الله عنه– قال سمعت رسول الله –ﷺ– يقول: «إِنَّهُ سَتَكُونُ هَنَاتٌ وَهَنَاتٌ، فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُفَرِّقَ أَمْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَهِيَ جَمِيعٌ، فَاضْرِبُوهُ بِالسَّيْفِ كَائِنًا مَنْ كَانَ»(١).

والحديث يخبر عما سيحدث بعد النبي – ﷺ – من فتن وشدائد كثيرة تتعرض لها الأمة، ثم يختص النبي –ﷺ – واحدة من هذه الفتن، ويسلط الضوء عليها، وهي ما سيحدث لهذه الأمة من محاولات لتفريق جمعها، وتشتيت شملها، ذاكراً كيفية التعامل مع أصحاب هذه المحاولات بدفعهم وردعهم بأقوى أنواع الردع .

والمقام وإن كان إخباراً إلا أنه يحمل تهديداً قوياً لمن يحاول المساس بوحدة الأمة، والنيل من أسباب قوتها .

وسياق الحديث يتقاسمه الخبر والإنشاء، فيبدأ بالخبر المؤكد " إنه ستكون هنات وهنات " ومعناها – كما ذكر المناوي – : " شدائد وعظائم وأشياء قبيحة منكرة وخصلات سوء"(٢)، وهذا الخبر يقرر حقائق ستتعرض لها الأمة بعد ذلك، ويخبر عن أهوال عظام .

وقد أكد الخبر بأكثر من مؤكد، حيث أكد بإن واسميه الجملة والسين " ستكون " وتكرار هنات، فجاءت مفردات الخبر كل مفردة تحمل تأكيداً مختلفا، فتكاثرت المؤكدات لتأكيد هذا الخبر وتقرير أنه

---

(١) صحيح مسلم، كتاب: الإمارة، باب: حكم من فرق أمر المسلمين وهو مجتمع، ح(١٨٥٢).
والهَنَات: الشرور والفساد، والمراد بها هنا: الفتن والأمور الحادثة وكل شيء مذموم فهو هنة. شرح النووي على صحيح مسلم ٢٤١/٢.

(٢) فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي ٩٩/٤، ط: المكتبة التجارية الكبرى– مصر، الأولى، ١٣٥٦هـ.

حقيقة واقعة لا محالة، ولا شك أن كثرة المؤكدات تتناسب مع مقام التحذير والتخويف، حتي يؤتي ثماره .

كما أن كثرة المؤكدات هنا تبرز شدة خوف النبي – ﷺ – على أمته، وحرصه عليها؛ لتيقنه بما سيحدث لها .

والتعبير بالمضارع " تكون " إشارة إلي تجدد هذه الفتن والشدائد علي الأمة تجدداً بشيء بالاستمرار، مما يدل علي كثرتها وتتابعها، ساعده التعبير بـــ"هنات" جمعا، وتنكيرها مما يؤكد كثرتها وتتابعها أيضا .

والهنات كناية عن موصوف وهي: الفتن والشدائد التي ستتعرض لها الأمة، وعدول البيان النبوي عن التصريح إلي الكناية إشارة إلي شناعة هذه الفتن وشدتها، وفي هذا ما فيه من التهويل والتخويف، وافتتاح الحديث بهذا الخبر " إنه ستكون هنات وهنات " تهيئة لما سيذكر بعدها، فهدف الحديث وغرضه الرئيس هو التهديد والتخويف لمن أراد تفريق المسلمين، وهو ما سيذكر لاحقا، ولكن النبي – ﷺ – مهَّد له بهذا الخبر ليهييء النفوس ويخوفها مما سيحدث من فتن واختلافات من أهمها ما سيحدث من محاولات التفريق والتمزيق لجسد هذه الأمة، وذلك قوله– ﷺ – : " فمن أراد أن يفرق هذه الأمة وهي جميع فاضربوه بالسيف كائنا من كان "، واختصاص فتنة التفريق لهذه الأمة من بين الهنات التي ذكرها النبي – ﷺ – في مطلع الحديث، اهتمام بها، ولفت النظر إليها لبيان خطورتها، فهو من ذكر الخاص بعد العام تنبيها علي أهمية الخاص، ولذلك ذكرها النبي – ﷺ – هنا، وأخبرهم ماذا يفعلون عند وقوعها من خلال الشرط " من أراد أن يفرقّ هذه الأمة

وهي جميع " الذي يبين حقيقة هذه الفتنة، والتعبير بـــ " مَنْ " للدلالة علي العموم، أي: أن أيَّ أحد أراد ذلك فافعلوا معه ما سأخبركم به .

والتعبير بفعل الإرادة " أراد " مما يبرز التصميم والعزم علي تفريق هذه الأمة من بعض الحاقدين عليها، الكارهين لها، مما يجعله جديراً باستحقاق ما سيفعل معه، كما أن التعبير بالإرادة يشير إلى عدم إنظار هذا الحاقد حتى يباشر التفريق وإنما متى تأكدنا من إرادته ذلك باشرناه بالجزاء، وفي هذا حفاظ شديد على وحدة الأمة والمحافظة عليها من محاولات بعض الحاقدين الذين يحاولون تمزيقها، فلا ننتظر حتى يباشروا فعلهم فيكون من الصعوبة ردعهم وزجرهم.

ثم يأتي الجزاء " فاضربوه بالسيف كائنا من كان " ليبين كيفية التعامل مع هذا الذي يصرُّ علي تفريق الأمة، ويصمم على تشتيت شملها .

والأمر " فاضربوه بالسيف " كناية عن القتل، وفيه إشارة إلي استعمال القوة والشدة في التعامل معه، واستخدام أقوي أساليب الردع – الضرب بالسيف – وهذا أمر بدفعه وقتاله حتي لو أدي ذلك إلي قتله، والمعني: " أن المفرّق للجماعة يدفع ولو اقتضى ذلك أن يقضى عليه، لأنه لو ترك لأخلَّ بالأمن ولأضرّ بالمسلمين، فإذا كان لا يندفع إلا بالمقاتلة فإنه يقاتل، وإذا كان يندفع بغيرها فإنه يفعل معه الشيء الذي يكف شره وأذاه، وهذا يدلنا علي حرص الإسلام علي جمع كلمة المسلمين، ووحدة الصف وعدم الفوضى، وعلى أن الأمن فيه مصلحة عظيمة والناس بحاجة إليه، وأن كل من يسعى للإخلال به فإنه يوقع به

العقاب الذي يستحقه ولو كان ذلك بالقتل أو القتال"[١] مما يدل علي أن الضرب بالسيف يكون آخر المراحل في التعامل معه؛ ولهذا أوثرت الكناية "فاضربوه بالسيف" على الأمر بالقتل "اقتلوه" مثلا ليشير إلى التدرج في التعامل معه واستعمال الأسلوب المناسب لردعه مما هو دون القتل، وذكر النبي – ﷺ – آخر المراحل وأقواها تناسبا مع مقام التهويل والتخويف الذي جاء عليه الحديث .

والتعبير بالحال " كائنا من كان " مبالغة في الوعيد والتهديد، إذ معناه : " سواء كان من أقاربي أو غيرهم "[٢]، أي: أنه لا أحد فوق هذه التعاليم مهما كانت مكانته، وأن اجتماع هذه الأمة أولي من كل شيء، وأهم من كل أحد .

وبالتأمل في الحديث يدرك الملتقي أن غرض الحديث وهدفه الرئيس يحمله أسلوب الشرط وجوابه " من أراد أن يفرق هذه الأمة وهي جميع فاضربوه بالسيف كائنا من كان "، وقد هيأ له النبي – ﷺ – بهذا التخويف والتحذير : " إنه ستكون هنات وهنات " ليضمن إصغاء الملتقى، وجذب انتباهه إلي ما سيلقي له بعد ذلك، وهذه سمة من سمات البيان النبوي حين يثير انتباه المتلقي بسؤال أو خبر أو نحو ذلك ليضمن إصغاءه، ويملك قلبه، وقد اعتمد الحديث علي ألوان بلاغية كثيرة كان من أبرزها الكناية، حيث جاءت في موضعين :الأول: قوله– ﷺ – " هنات " كناية عن الفتن، والثاني: قوله –ﷺ –" فاضربوه بالسيف " كناية

(١) شرح سنن أبي داود للعباد، محاضرات صوتية مفرغة، المحاضرة رقم: ٥٤١، ص١١. على شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت)، ورابطها: http://www.islamweb.net

(٢) عون المعبود ٧٦/١٣.

عن القتل، وتعانق معها في إبراز المعنى بعض الألوان الأخرى كالأمر والتكرار والتخصيص بعد التعميم، واستعمال الصيغ المعبرّة مما جعل الحديث علي إيجازه يحمل كثيرا من الدلالات والمعاني التي تجعل التحذير والتهديد يؤتى ثماره في المحافظة علي وحدة الأمة .

* * *

الحديث الرابع: مفارقة الجماعة سبب في الخزي بين يدي الله– تعالى–.

عن حذيفة – رضي الله عنه – قال : سمعت رسول الله – ﷺ – يقول : "مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ وَاسْتَذَلَّ الْإِمَارَةَ لَقِيَ اللهَ وَلَا وَجْهَ لَهُ عِنْدَهُ "(١).

ومقام الحديث ترهيب وتهديد لمن يفارق الجماعة، ويستذل الإمارة، وأنه لا مكانة له عند ربه – سبحانه – يوم يلقاه .

وقد جاء هذا الحديث في قالب أسلوب الشرط كالأحاديث السابقة، واستغرق أسلوب الشرط الحديث كله، فتحقق له الإيجاز.

واستعمل في الحديث أيضا اسم الشرط " مَنْ " لما فيه من معنى العموم ، أي: أن أيّ أحد ينطبق عليه الشرط مفارقة الجماعة واستذلال الإمارة يستحق الجزاء " أن يلقى الله – تعالى – ولا حجة له " .

وجاءت جملة فعل الشرط " فارق ..... و استذل ..... " جملة فعلية فعلها ماض للدلالة علي أن الجزاء يلحق من تحققت مفارقته للجماعة، وانفصل عنها انفصالا تاما، أما من يتصل بها بأي وسيلة ولو ضعيفة لا يحصل له هذا الجزاء مما يدل على أن الاتصال بالجماعة ولو بخيط رفيع جداً يقي صاحبه الخزي بين يدي الله – تعالى – ولذلك أوثر التعبير بالمفارقة " فارق " على غيره مما يقترب معه في المعني كالمخالفة مثلا، للدلالة على أن لزوم الجماعة، والجلوس في معيّتهم

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل:٣٨٧/٥،ح(٢٣٣١).

حصن للإنسان حتى ولو كان رأيه مخالفا لهم، فالمهم أن يكون في معيتهم، ملازما لهم .

وتقديم مخالفة الجماعة في جملة الشرط على استذلال الإمارة لأهميتها، فإن الخطر الذي يعود على الفرد والمجتمع من مفارقة الجماعة أشد من الخطر الناشيء عن استذلال الإمارة.

وقوله :" لقي الله و لا وجه له عنده "معناه: لا صحة له في فعله، ولا عذر له ينفعه(١).

وهو كناية عن إهمال الله له، وإعراضه عنه، مما يدل على شدة غضبه عليه، واحتقاره له، بسبب مخالفته جماعة المسلمين .

وقد صوّرت الكناية حالة الذلة والصغار التي تلحق المخالف للجماعة عند لقاء ربه – سبحانه – ، وفضحه على رؤوس الأشهاد يوم القيامة .

وحسب المفارق للجماعة ترهيبا وتخويفا أن يخزيه الله بين الخلائق يوم القيامة، ويعرض عنه، ولا يجد له عذراً بين يدى خالقه – سبحانه – .

ولا شك أن هذا تهديد بالغ يضاف إلي التهديدات السابقة التي تلحق من يخالف جماعة المسلمين .

* * *

(١) شرح النووي على صحيح مسلم:١٢/٣٤٠.

الحديث الخامس : ذمّ و تحقير من يفارق الجماعة .

عن فضالة بن عبيد – عن رسول الله – ﷺ – أنه قال : " ثَلَاثَةٌ لَا تَسْأَلْ عَنْهُمْ: رَجُلٌ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ، وَعَصَى إِمَامَهُ، وَمَاتَ عَاصِيًا، وَأَمَةٌ أَوْ عَبْدٌ أَبَقَ فَمَاتَ، وَامْرَأَةٌ غَابَ عَنْهَا زَوْجُهَا، قَدْ كَفَاهَا مُؤْنَةَ الدُّنْيَا فَتَبَرَّجَتْ بَعْدَهُ، فَلَا تَسْأَلْ عَنْهُمْ "(١) .

و مقام الحديث ذم وتحقير لمن يتصف بهذه الأوصاف الثلاثة.

ولما كان المقام للذم تناسب معه أن يأتي الحديث في صورتين : مبهمة في قوله : ثلاثة لا تسأل عنهم "، ومفصّلة في قوله: " رجل فارق الجماعة الخ " وهو ما يعرف بالبيان بعد الإبهام، وفيه عرض للمعني في صورتين للتشويق وإثارة الانتباه، وهو ما يرجع علي المعنى بالتأكيد والمبالغة تناسبا مع مقام الذم والتحقير .

والنهي في قوله : " لا تسأل عنهم " يحمل معني الإهمال لهم، والتحقير لشأنهم، فهم أصغر من أن تهتم بهم، وتُعنى بشأنهم .

وحذف علَّة النهى هنا إيجاز متناسب مع الإهمال والتحقير، وكأنهم لا يستحقون حتي مجرد إطالة الحديث عنهم بذكر علة عدم السؤال، وتقدير العلة كما ذكر المناوي – رحمه الله–: " فإنهم من الهالكين"(٢)، وهذا مما يبالغ في ذمّهم وتحقيرهم.

ثم يتطرق الحديث بعد ذلك لتفصيل هذه الأنواع المذمومة، بادئا بقوله: " رجل فارق الجماعة وعصى إمامه ومات عاصياً"، وتقديم هذا

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل: ٣٦٨/٣٩، ح(٢٣٩٤٣).

(٢) التيسير بشرح الصغير للمناوي:٩٧٠/١، مكتبة الإمام الشافعي، الرياض، الثالثة، ١٤٠٨ه، ١٩٨٨م.

النوع على غيره لتأكيد أهميته، وشدة خطورته، حفاظا على وحدة الأمة، فالمفارق للجماعة أشد خطراً من غيره، ولذا اقتضى المقام تقديمه .

واختصاص الرجل بالذكر هنا " لشرفه وأصالته، وغلبة دور ان الأحكام عليه، فالأنثى مثله من حيث الحكم "[1]، هذا فضلا عن أن مفارقة الرجل للجماعة هي الأشد خطراً، وأن الجماعة شأن الرجل لا المرأة، وهذا هو الغالب.

وتنكير " رجل " لإفادة العموم، أي : أيّ رجل ينطبق عليه الوصف داخل في نطاق الذم والتحقير، ومثله تنكير " أمة " ، " عبد" ، " امرأة " في بقية الأنواع[2].

ويختم الحديث بالتكرار " فلا تسأل عنهم " لتأكيد إهمالهم، والمبالغة في ذمهم وتحقير شأنهم .

وبمعاودة التأمل في الحديث يلحظ الملتقي كثرة الألوان البلاغية وتآزرها لتأدية الغرض المقصود من الحديث وهو – ذم هذه الأنواع الثلاثة – .

ويمكن إجمال أهم المظاهر البلاغية التي وردت في الحديث فيما يلي :

١- الدقة في اختيار أسلوب البيان بعد الإبهام الذى استغرق الحديث كله،

---

(١) فيض القدير: ٣/٣٢٤.

(٢) لما كان النوعان الآخران لا علاقة لهما بموضوع البحث آثرت عدم ذكرهما حتى لا يترهل البحث، ويدخل فيه ما ليس منه.

وما يدل عليه ذلك من تأكيد للمعني بعد التشويق إليه .

٢- النهى " لا تسأل عنهم " وما يحمله من إهمال وتحقير يتناسب مع مقام الذم .

٣- التكرار أيضا " لا تسأل عنهم " وما فيه من تأكيد للذم .

وغيرها من الألوان الأخرى كالتنكير والحذف، وبهذا تكاتفت كل العناصر لخدمة الغرض المقصود من الحديث، وكانت علي ضرب من التناغم والتناسق والتآزر لبيان المعني في أبهي صورة وأكمل لفظ .

وبمعاودة التأمل في هذا الحديث وأضرابه من الأحاديث التي ترهِّبُ من مخالفة الجماعة يلحظ الملتقى هذا التنويع في وسائل الترهيب والتخويف كما تنوعت وسائل الترغيب، فمرة يجعل النبي – ﷺ – المفارق للجماعة في صورة المرتد عن الدين، و مرة يجعله يشذ في النار، ومرة يخبر بأنه سيموت ميتة جاهلية، ومرة من خلال الأمر بقتله " فاضربوه بالسيف كائنا من كان "، ومرة عن طريق الإخبار بخزيه بين يدي الله – تعالى –، وأخرى عن طريق ذمّه وإهماله، وتحقيره، من خلال عدم السؤال عنه، وإهماله كما في هذا الحديث .

ولا شك أن هذا التنويع في وسائل الترهيب باعث قوي، ومحفز فاعل في الحثّ على لزوم الجماعة، هذا فضلا عما فيه من دلالة علي أهمية لزومها.

* * *

الخاتمة

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين .

وبعد،،

فمن خلال هذه المعايشة الممتعة لكلام النبي – ﷺ – في هذا البحث ، يمكن إجمال أهم النتائج التي أسفرت عنها الدراسة فيما يلي :

١- جاءت الأوامر النبوية بلزوم الجماعة في أساليب مختلفة، وسياقات متعددة، منها الأمر المباشر " عليكم بالجماعة " الذى تكرر غير مرة، والأمر عن طريق الخبر " تلزم جماعة المسلمين "، وهذا إن دلّ فإنما يدل على اهتمام النبي – ﷺ– بأمر الجماعة المسلمة، وتأكيده علي ضرورة لزومها .

٢- عقبت معظم الأوامر بلزوم الجماعة بالتعليل " فإن دعوتهم تحيط من ورائهم " ، " فإن الشيطان مع الواحد"، وهذا مما يزيد الحث على التزام هذه الأوامر، ويرغّب فيها .

٣- كان للترغيب والترهيب دور رائد في الحث على لزوم الجماعة، فلم يخل منهما أو أحدهما حديث، وهذا مما يزيد الحث علي التزام المأمور به "لزوم الجماعة".

٤- لاحظت أن الحث علي لزوم الجماعة في البيان النبوي كان يسبق بالتهيئة في معظم الأحاديث، كالدعاء مثلا في قول النبي – ﷺ – "نضَّر الله امرأ ....." أو الاستفهام أو غيرهما لتثبيت الحث في النفوس، وتمكينه فيها .

٥ – احتلَّ أسلوب الشرط معظم الأحاديث التي تحث علي لزوم الجماعة، خاصة الأحاديث التي تحمل وعيداً وتحذيراً، وفي هذا إشارة إلى تحقق الوعيد فور تحقق الشرط، وهذا رادع قوي لمن أراد أو فكّر في تفريق جماعة المسلمين ، وكانت أداة الشرط "مَنْ" أكثر أدوات الشرط ورودا؛ وذلك لما فيها من العموم والإبهام مما يجعل الترهيب موجها إلى جميع المسلمين؛ وفي هذا زيادة تحذير لهم من مخالفة الجماعة.

٦ – كان لأسلوب البيان بعد الإبهام دور بارز أيضا في الحث على لزوم الجماعة، والتحذير من مفارقتها، وذلك لما يحمله من توكيد بالغ اقتضته طبيعة المأمور به (لزوم الجماعة) .

٧ – جاءت معظم الأحاديث الواردة في الحث على لزوم الجماعة متقاربة المعاني، وتكاد تكون متقاربة الألفاظ أيضا مما يفيد التنويع في الأسلوب والهدف واحد، وذلك إشارة إلي أهمية الجماعة، وتأكيد دورها في تقدم المجتمعات.

٨– تنوعت وسائل الترهيب من مخالفة الجماعة في الأحاديث، وحملت كلها ترهيبا قوياً، جعله جديراً بأن يصل إلي قلب المخالف، ويؤتي ثمرته من التخويف والتهديد، مما جعل الترهيب وسيلة قوية من الوسائل التي اعتمد عليها النبي – ﷺ – في الحث على لزوم الجماعة .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

* * *

قائمة المصادر والمراجع

١–الأحاديث الواردة في لزوم الجماعة – دراسة حديثية فقهية – د/ حافظ محمد الحكمي – دار الصّميعي للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤٢٨ ه .
٢ – الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم د/صباح دراز– مطبعة الأمانة مصر ط١ ١٤٠٦ ه – ١٩٨٦ م .
٣ – الأسلوب أ/ أحمد الشايب – مكتبة النهضة المصرية ط٧ ١٣٩٦ ه – ١٩٧٦ م .
٤ – الاعتصام لإبراهيم موسي اللخمي الشهير بالشاطبي – تحقيق : سليم عيد الهلالي، نشر دار ابن عفان – السعودية – ط١ ١٤١٢ ه – ١٩٩٢ م .
٥ – البلاغة في السنة النبوية د/ عزة محمد جدوع – مكتبة المتنبي ط٣ ١٤٣٩ ه – ٢٠١٨ م
٦ – البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري د/ محمد أبو موسي – مكتبة وهبة ط٢ ١٤٠٨ ه – ١٩٩٨ م .
٧ – بهجة فلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار لعبد الرحمن ناصر السعدي، تحقيق/ عبد الكريم آل الدريني، مكتبة الرشد، ط١، ١٤٢٢ه، ٢٠٠٢م.
٨ – التحبير د/ محمود توفيق سعد – مكتبة العمروسي القاهرة .
٩ – تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي للمباركفوري – دار الكتب – بيروت .
١٠ – تفسير القرآن العظيم لابن كثير، تحقيق: سامي محمد سلامة، دار طيبة ط٢، ١٤٢٠ه،١٩٩٩م.
١١ – التيسير بشرح الجامع الصغير للمناوي – مكتبة الإمام الشافعي، الرياض ١٤٠٨٣ ه –١٩٨٨ م .
١٢ – الجامع الصحيح سنن الترمذي لمحمد بن عيسي الترمذي – تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي – بيروت .
١٣ – الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، تحقيق/ هشام البخاري، دار الكتب العلمية، الرياض، ١٤٢٣ه، ٢٠٠٣م.

١٤ – حاشية الدسوقي ضمن شروح التلخيص، مطبعة السعادة، مصر، ط٢، ١٣٤٢ه.
١٥ – دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني، ت/ شاكر – مكتبة الخانجي، القاهرة .
١٦– روح الاجتماع د/ جوستاف لوبون ترجمه من اللغة الفرنساوية المرحوم/ أحمد فتحي زغلول باشا، صححه ونشره / توفيق الرافعي – المطبعة الرحمانية مصر .
١٧ – سبل السلام الصنعاني – مكتبة الحلبي ط٤ ، ١٣٧٩ ه – ١٩٦. م .
١٨ – سنن ابن ماجة لأبي عبدالله محمد بن يزيد القزويني، تحقيق: بشار عواد معروف، طبعة دار الجيل، الأولى، ١٤١٨ه، ١٩٩٨م.
١٩ – السنة لابن أبي عاصم، ط: المكتب الإسلامي – بيروت، الأولى، سنة: ١٤٠٠هـ.
٢٠– شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة واجماع الصحابة – لهبة الله بن الحسن اللالكائي – تحقيق د/ أحمد سعد حمدان، دار طيبة – الرياض – ١٤٠٢ ه .
٢١ – شرح السنة للإمام البغوي – تحقيق زهير الشاويش وشعيب الأرناؤوط المكتب الإسلامي – بيروت – ط٢ ١٤٠٣ ه – ١٩٨٣ م ٠
٢٢ – شرح النووي على مسلم لأبي زكريا يحيى بن شرف النووي، طبعة: دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٣٩٢ه.
٢٣ – صحيح البخاري (الجامع الصحيح المختصر) لمحمد بن إسماعيل البخاري الجعفي، تحقيق: د/ مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، ط٣، ١٤٠٧ه، ١٩٨٧م.
٢٤ – صحيح مسلم لمسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، تحقيق/ محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٢٥ – الطراز للعلوي – دار الكتب العلمية – بيروت ، لبنان .
٢٦– عمدة القاري شرح صحيح البخاري للعيني، دار الفكر.

٢٧ – عون المعبود شرح سنن أبي داود لمحمد شمس الحق العظيم آبادي أبو الطيب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤١٥ه.
٢٨ – فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني – تحقيق / عبد العزيز بن باز ومحب الدين الخطيب – ترقيم / محمد فؤاد عبدالباقي – نشر دار الفكر .
٢٩ – فيض القدير للمناوي – المكتبة التجارية الكبرى – مصر – الطبعة الأولى – ١٣٥٦ ه
٣٠ – قراءة في الأدب القديم د/ محمد أبو موسي – مكتبة وهبة .
٣١ – الكتاب لسيبويه – ت / عبدالسلام هارون – نشر دار الجبل – بيروت
٣٢– الكشاف للزمخشري، تحقيق/ عادل عبد الموجود وعلي عوض، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٤١٨ه، ١٩٩٨م.
٣٣ – لسان العرب لابن منظور، دار صادر، بيروت، ط.١
٣٤ – المستدرك على الصحيحين لمحمد بن عبد الله أبو عبدالله الحاكم النيسابوري، دار الكتب العلمية، بيروت،ط١، ١٤١١ه، ١٩٩٠م.
٣٥ – مسند الإمام أحمد بن حنبل – تحقيق / شعيب الأرنؤوط وآخرون – مؤسسة الرسالة – ط٢ – ١٤٢ ه – ١٩٩٩ م .
٣٦ – مشارق الأنوار علي صحاح الآثار للقاضي عياض – المكتبة العتيقة ودار التراث
٣٧– مفتاح دار السعادة لابن القيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م،١٤١٩هـ.
٣٨ – من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم " الفاء و ثم " د / محمد الأمين الخضري، مكتبة وهبة .
٣٩ – النهاية في غريب الحديث والأثر لأبي السعادات المبارك بن محمد الجزري، تحقيق / طاهر محمد الزاوي، محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، ١٣١٩ه، ١٩٧٩م.
٤٠ – هدي الساري مقدمة فتح الباري لابن حجر العسقلاني – دار المعرفة، بيروت .

فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة
مقدمة	٥٣٣
تمهيد: المقصود بالجماعة	٥٣٥
المبحث الأول : الحث على لزوم الجماعة في سياق الترغيب	٥٣٨
الحديث الأول: لزوم الجماعة نجاة من الفتن	٥٣٨
الحديث الثاني: لزوم الجماعة طهارة من الغل	٥٤٧
الحديث الثالث : لزوم الجماعة طريق إلى الجنة.	٥٥٤
الحديث الرابع: لزوم الجماعة عصمة من الاختلاف	٥٥٩
الحديث الخامس: حماية الله – تعالى – للجماعة	٥٦٦
الحديث السادس: لزوم الجماعة سبب في رحمة الله – تعالى	٥٧٠
الحديث السابع: لزوم الجماعة سبب في معية الله – تعالى –	٥٧٣
الحديث الثامن: لزوم الجماعة طريق لمرضاة الله –تعالى –	٥٧٧
المبحث الثاني: الحث على لزوم الجماعة في سياق الترهيب	٥٨٢
الحديث الأول: مفارقة الجماعة خروج عن الدين	٥٨٢
الحديث الثاني: مفارقة الجماعة خروج عن الدين	٥٨٤
الحديث الثالث: تهديد من يحاول تفريق الجماعة	٥٨٧
الحديث الرابع: مفارقة الجماعة سبب في الخزي بين يدي الله –تعالى –	٥٩٢
الحديث الخامس: ذم وتحقير من يفارق الجماعة.	٥٩٤
الخاتمة.	٥٩٧
فهرس المصادر والمراجع.	٥٩٩
فهرس الموضوعات	٦٠٢